دروس التاريخ

تأليف

د. محمد العبدة

يُطلبُ مِنْ

الأعمال الهادفة
الرياض

مكتبة الكوثر
الرياض

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٢٣٧٢

ISBN: 978-977-430-197-1

يطلب من

الأعمال الهادفة

ص.ب: ٣٠٤٤ الرياض: ١١٤٧١

س.ت: ١٠١٠٣٨٩٧٢٢ هاتف: ٨٣٥٥٣٤٢ جوال: ٠٥٥١٩٣٤٢٩٦

البريد الإلكتروني: arabicbooks11@gmail.com

مكتبة الكوثر

الرياض - حي الفلاح - مقابل جامعة الإمام ص.ب: ٨٧٢٩

الرياض: ١١٤٩٢ هاتف: ٠٠٩٦٦١١٢٧٥٣٦٦٢

الأستاذ لخدمات الطباعة

القاهرة - خلف جامع الأزهر - ١٦ش البيطار محمول: ٠٠٢٠١٠٢٢٧٧٨٦٠٨

Email : arabicbooks100@gmail.com

مثـل القـوم نَسـوا تـاريخهم كلقـيطٍ عَـيَّ في النـاس انتسـابا

أو كمغلـوبٍ علـىٰ ذاكـرةٍ يشـتكي مـن صـلة الماضـي

(أحمد شوقي)

«فالماضي أشبه بالآتي من الماءِ بالماء».

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله المبعوث رحمةً للعالمين.

وبعد:

فإن التفتيش عن «**دروس التاريخ**» لابد أن يساعد الإنسان المعاصر علىٰ تفهُّم بعض مشكلاته؛ لأن دراسة تطور مشكلة سابقة -يوجد اليوم ما يشبهها- يجعل المرء قادرًا علىٰ فهم ملابسات الحاضر والوصول إلىٰ حلول ناجعة.

إنَّ التاريخ في حركة مستمرة لأنه هو الزمن الذي يظهر فيه قدر الله سبحانه وعلمه وإرادته، فالحوادث لا تتطابق ولكن تتشابه، بل إنَّ المؤرخ ابن خلدون يرىٰ أنّ الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء، والمشاكل التي ندرسها هي مشاكل حاضرة

دائمًا، وهذا لا يمنع أن تكون «تاريخًا»، فالتاريخ يشمل الزمان كله الماضي والحاضر وما يتوقع في المستقبل، وإذا لم يكن هناك إجابات قاطعة حول بعض الأحداث، ولكن ما المانع أن نفكر فيها والتفكير هنا إيجابيٌّ وليس سلبيًّا.

القرآن الكريم يدعونا للسير في الأرض وقراءة تجارب الأمم وسير الحضارات وتعاقبها ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾.

[الروم: ٩]

إنَّ تاريخنا الإسلامي بشكل خاص بحاجة إلىٰ إعادة قراءته ومُدارسته بعيدًا عن التمجيد المحض، وبعيدًا أيضًا عن الإزراء به والنقد الهدام له، حين يفتش بعض الناس عن نقاط الضعف أو الأخطاء ويقفون عندها، بل وضعه موضع التمحيص والتحقيق للوصول إلىٰ الحقائق أو ما يقرب منها إن أمكن ذلك، لأن هذا التاريخ مستهدف أكثر من غيره في تراثنا لمحاولات التزوير والتشويه.

ورحم الله شيخ العربية الأستاذ محمود محمد شاكر عندما يقول: «إن الضلالات التي أحاطت بالتاريخ العربي الإسلامي لهي أسوأ الضلالات وأشدها وأعصاها علىٰ العلاج، فإذا لم يتنبه العرب والمسلمون إلىٰ تاريخهم لانماثوا في الأمم كما ينماث الملح في الماء»(١).

ويعلل المؤرخ عبد العزيز الدوري سبب تعرض التاريخ لكثير من الهوىٰ يقول: «هو موضوع ميسور بعض اليسر لمن أراد الكتابة فيه؛ ولهذا كان مسرحًا لكثير من الهوىٰ ولقليل من البحث الدقيق».

ولأهمية التاريخ اهتم به المسلمون في العصور الأولىٰ اهتمامًا بالغًا؛ لأنه هو الصلة بينهم وبين العصر النبوي والعصر الراشدي، وكان عمل المؤرخين والجغرافيين هو ربط الأمة الإسلامية من حيث الزمان والمكان بعيدًا عن التقسيمات السياسية التي أصبحت واقعًا.

هل نقول: إن علم التاريخ ضَعُف أو أصابه شيء من الإهمال في العصور الأخيرة، مع أنه لا شيء يهدي الإنسان

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر / (ج٢ ص ٧٠٠) ط٢ مكتبة الخانجي.

كالمَثُلات والوقائع ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦].

لماذا لم ندرس أسباب سقوط الأندلس السياسية والاجتماعية والأخلاقية، ولماذا لم ندرس أسباب التفاف الغرب علينا واستعمار بلاد المسلمين، ومن أين جاءت هذه القوة للغرب، وما هي أسباب ضعف المسلمين، وكيف ضاعت أجزاءٌ من بلادهم بسبب التفرق والتناحر بين الأحزاب والعشائر.

لو قرأنا التاريخ لما أصابنا في العصر الحديث ما أصابنا من أذىٰ الفرق الباطنية ومن يشايعها، وكيف تلاعبت هذه الفرق بعقول المسلمين بشعاراتٍ كاذبة ثم نفذت مخططاتها لاحتلال بعض الأقطار العربية.

بعض الدول تهتم بالتاريخ لأنها ترىٰ فيه الوسيلة لاستنفار المشاعر وتبرير سلطة الحاكم وطغيانه، وحتىٰ يتم هذا يُزور التاريخ وتقلب الحقائق ويطمس كل ما يخالف هوىٰ هذا الحاكم.

تتردد في القرآن الكريم كلمة «الحكمة» وهي تأتي عادةً بعد ذكر «الكتاب» ومن معاني الحكمة المؤسسة علىٰ الكتاب: تقدير

العواقب التي قد تحدث علىٰ المدىٰ البعيد، والحكمة هي التي ترسم الخارطة التي تمكننا من الرؤية بوضوح ماذا نريد وكيف نصل إلىٰ ما نريد.

يريد القرآن من المسلم أن يزداد تجربة وتعقلًا في السير في الأرض وكذلك من الرحلة إلىٰ الماضي ودراسة التاريخ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج:٤٦]

الفصل الأول
مقدمات

١- من يستفيد من التاريخ.

٢- أهمية التاريخ.

٣- الماضي والحاضر.

٤- التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري.

٥- من يقف خلف تشويه تاريخنا.

(١)
من يستفيد من التاريخ

هل هناك دروس من التاريخ كحقائق مسلَّم بها؟ وهل يعتبر الناس من قراءة التاريخ؟ وهل نستخلص منه ما يوضح أحوالنا الحاضرة أو يحمينا من المفاجآت والتقلبات؟ أم هو كلام يتردد وليس له رصيد من الواقع؟

وكيف يكون الاعتبار ونحن نرىٰ كثيرًا من الناس، وكثيرًا من الدول والزعماء السياسيين لا يستفيدون من التاريخ، ولا يعتبرون بما وقع لأمثالهم فيما مضىٰ من الزمن؟

لماذا لم يقرأ الطغاة ما حل بأمثالهم، وكيف قصمهم الله وأكبهم علىٰ وجوههم؟ وقد عاش بعضهم في العصر الحديث حياة التشريد وذاقوا مرارة الذل، لماذا لم يتخوفوا مصيرًا كمصير

أولئك بل استمروا في عنادهم وغيهم سادرين؟

لماذا لم يتذكر الخليفة العباسي هارون الرشيد ما جلبته قصة البيعة لاثنين من أولاده من مشكلات قد وقعت لسلفه من بني أمية؟

وفي العصر الحديث هل نظرت الحركات الإسلامية إلىٰ الوراء قليلًا لترىٰ كيف أخطأت حركات مثلها؟ وكيف استُجرَّت إلىٰ معارك لا طاقة لها بها، وكيف داست علىٰ الألغام التي وضعت لها؟

والأمثلة كثيرة في الماضي والحاضر، ولو قرأت هذه الحركات نظرية ابن خلدون في العصبية لما أقدمت علىٰ ما أقدمت عليه.

«ولماذا تقع البشرية مرة تلو مرة في المصيدة ذاتها، هل يحملون مخزونًا هائلًا من الغباء؟» كما يقول السياسي الروماني «كاتو».

هل هذا يعني أن لا فائدة تذكر مما يسمىٰ «دروس

التاريخ»؛ لأن الحوادث لا تتشابه والناس لا يعتبرون، ذلك لأنهم يعيشون يومهم ولا يهتمون بالماضي، هذا ما يراه الفيلسوف الألماني «هيغل» عندما يقول: «وما تعلمنا إياه الخبرة والتاريخ هو أن الشعوب والحكومات لم تتعلم أبدًا أيَّ شيء من التاريخ».

القرآن الكريم حل هذا الإشكال حين يقول: إن الذي يعتبر بالأحداث هم أولو الألباب وأولو الأبصار، قال تعالىٰ عن يهود بني النضير: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقد قص القرآن الكريم قصص الأنبياء وما جرىٰ لهم مع أقوامهم، وما حل بالذين بطروا معيشتهم وكفروا بأنعم الله، ليتفكر الناس ويتدبروا ويعلموا عواقب الكفر والاستكبار، والآيات القرآنية تعقب دائمًا: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤].

وقد احتج المتأخر من الرسل علىٰ قومه بما وقع للمتقدم وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩]

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

[الأعراف: ١٧٦]

وقد طلب القرآن الكريم من كفار قريش أن يعتبروا بما يشاهدون من آثار الأمم التي كفرت بأنعم الله ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال تعالىٰ بعد أن ذكر هلاك عاد وثمود وفرعون حيث قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٢].

يقول المفسر ابن عطية: «ثم أحالهم في علم ذلك علىٰ الطلب في الأرض واستقراء الأمم والوقوف علىٰ عواقب الكافرين»(١).

ويقول ابن تيمية: «إن الله لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها، فنشبه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأولها؛ فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه فيما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون الكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين؟

كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١](٢) وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]، أي: أن هناك منظومة من الأحداث تتكرر بين الماضي والمستقبل، وهناك علاقة بين التاريخ والسنن ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩]، سنة

(١) «تفسير ابن عطية» (٨/ ٤١٣).

(٢) «الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٢٥).

عامة مطردة إن المجرمين سينالهم العقاب بطريقة ما، ولكن الطغاة لا يعتبرون؛ لأن الطرق سُدَّت عليهم عقوبة لهم بسبب ظلمهم، فالأحداث ليست مفاجأة، بل هناك بداية ونهاية وهناك غاية.

إن النظر في العواقب يعتبره القرآن من السنن الاجتماعية الكونية التي تدل علىٰ صحة التفكير وسلامة المنهج، فالاعتبار والنظر لأحداث الماضي لمعرفة المستقبل منهج صحيح، ولكن الذي يتدبر وينظر ويقارن ويحاول معرفة أسباب الحوادث هم الذين وصفوا بأنهم ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] و﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ [القمر: ٤].

فالذين لا يستخدمون ما وهبهم الله ﷻ ليتفكروا ويعقلوا السنن الاجتماعية لا يستفيدون من التاريخ، لأن أحد أجهزة التلقي وهو الفؤاد معطل عند هؤلاء، وأما أصحاب القلوب السليمة والعقول الراجحة؛ فهم الذين يقفون علىٰ سير الدول والأمم وعلىٰ عواقب الكفر والظلم والفساد، ويعلمون أن ما وقع لغيرهم قد يقع عليهم، وسنة الله في هؤلاء وهؤلاء واحدة.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾

[القمر: ٤٣]

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

فالمُعْتبَر كثير ولكَّن المُعْتبِر قليل قال تعالىٰ متحدثًا عن قوم لوط: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٤-٧٧].

وكأنه سبحانه ترك الآثار ليسير الإنسان في الأرض وينظر كيف فُعل بهؤلاء، إنه مشهد لقرية سلمها الفسق إلىٰ الخراب، يقدم هذا المشهد ليعتبر الناس بالمصير الذي ينتظر من يفسق عن أمر ربه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦]؛ أي: قد يُعذرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المعذبة مثل عادٍ وثمود.

ومن سنن الله سبحانه أن نفس الأسباب تأتي بنفس النتائج في جميع الأوقات ولسائر الشعوب وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾.

[المائدة: ١٨]

إن الذين يعيشون حياة مادية ويفكرون تفكيرًا قاصرًا لا يعتبرون بالأحداث، وهم يعتقدون أن كل ما يقع في هذا الكون هو من فعل «الطبيعة»؛ أي: أن الأمور تحدث بشكل آلي، ليس لله

فيها مشيئة، وهؤلاء إذا جاءتهم عواصف مدمرة أو أمراض فتاكة لا يعتقدون أن هذا عقوبة من الله، وأهل الغفلة في عالمنا الإسلامي لا يفكرون أن ما هم فيه من تسلط الظالمين ووقوعهم في أَسْر الذل إنما هو بما كسبت أيديهم وببعدهم عن الدين.

كيف يستفيد من التاريخ من لا يعتبر التاريخ علمًا ولا يعتبره صنعة مهمة لتصيد الوقائع وإسقاطها علىٰ الحاضر، والحقيقة أن الإنسان الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق: ٦] هو الإنسان في كل زمان ومكان، والنفسية الأوربية التي تولت اقتناص الزنوج في إفريقيا، وتولت تعذيبهم واستعبادهم، هي باقية علىٰ حالها اليوم عندما نشاهد قتل الشعب الفلسطيني بأسلحة الغرب وأمواله وقتل الشعب السوري بدعم من روسيا والصين والباطنيين.

والشهوات والغرائز باقية في الإنسان، قد يضعها في محلها المشروع في اعتدال وقد تنفلت من عقالها، ولا فرق بين باريس وهوليود وبين روما قديمًا، «فقد كان الإغريق في زمن أفلاطون

يتصرفون علىٰ نحو مشابه جدًّا للفرنسيين في القرون الحديثة، وكان الرومان يتصرفون مثل الإنكليز، ولكن الوسائل والوسائط تتغير، أما الدوافع والغايات فتظل كما هي»[١].

«وعامة المؤرخين اليوم علىٰ أن ما يسمىٰ بالتقدم أو مسيرة الحضارة إلىٰ الأحسن إنما هو وهم، لأن غرائز الإنسان وأخلاقه المركبة باقية كما هي، بل زادت حدة وضراوة»[٢].

إن من حسن الحظ أن دروس الحياة لا تنقطع، فالعاقل هو الذي يفيد من حادث الأمس الذي مر به آباؤه ليعالج حدث اليوم.

(١) ول ديورانت «دروس التاريخ» (٧٤).
(٢) المؤرخ هاري ألمر بارنز. انظر: مصطفىٰ حلمي «السلفية» (٢٠٢).

(٢)
أهمية التاريخ

لـــيس بإنســـان ولا عاقـــل من لا يعي التاريخ في صدرهِ
ومن روىٰ أخبار مَن قد مضىٰ أضـاف أعمـارًا إلـىٰ عمـرهِ

لا يستفيد من التاريخ من لا يقدر أهميته، ومن لا يضعه في الموضع الذي يستحقه في قائمة العلوم المفيدة؛ فإن دراسة التاريخ تربطنا بمقومات الأمة من الدين واللغة والأخلاق؛ فإذا لم تحفظ هذه الأشياء تكون الأمة عرضة للتأثير والتغيير.

يقول الشيخ رشيد رضا معاتبًا المسلم الذي لا يعطي التاريخ حقه من الإهتمام: «فما لك لا تعد من هذا الدين معرفة تواريخ الأمم الغابرة واختبار أحوال الأمم الحاضرة، ومعرفة الأقطار والبقاع، والعلم بشئون الاجتماع، أليس هذا من إقامة

القرآن واستعمال الفرقان والميزان»[١].

وقد سبقه إلىٰ التنويه بشأن التاريخ العلامة ابن خلدون عندما أشار إلىٰ أن التاريخ ليس حكايات تساق للتسلية والترفيه كما يتوهم بعض الناس ببادي الرأي؛ يقول: «إذ هو في ظاهره لا يزيد علىٰ أخبار عن الأيام والدول، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات «الحوادث» ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[٢].

وهنا نجد أن ابن خلدون أصاب المحز ووضع التاريخ في موضعه الصحيح، فهو ليس من العلوم الثانوية كما ذكر أبو حامد الغزالي وتبعه علىٰ ذلك الإمام النووي.

يقول الأستاذ محمد كرد علي: «وما عهدنا عاقلًا يدعو أمة إلىٰ تناسي تاريخها، بل رأينا كل أمة تدرس تاريخها مهما كان اسوداد صفحاته لأنه مهمازها إلىٰ العمل»[٣].

لقد عمق القرآن الكريم الإحساس التاريخي عند المسلمين

---

(١) «مجلة المنار» م (١٠/ ٧).

(٢) «المقدمة» (١/ ٢٨٢).

(٣) «الحضارة العربية» (١/ ٤٥).

عندما وصلهم بالأنبياء والأمم السابقة، وجعل تاريخ الخليقة مجالًا لنظرهم ومجالًا للتدبر والتفكر.

قال تعالىٰ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد اشتغل بعلم التاريخ علماء من أمثال الطبري وابن إسحاق وابن سعد وابن كثير، وقيل عن الشافعي: «كان عالمًا بأيام الناس»، وكان الصحابة علىٰ علم بتاريخ وجغرافية البلدان المجاورة للجزيرة العربية، وهذا مما ساعدهم علىٰ التخطيط للفتوحات الكبرىٰ.

فالتاريخ قبل بعثة الرسول ﷺ هو تاريخ الأنبياء، وبعد بعثته صار تاريخ العلماء بشتىٰ أصناف العلوم، فالأمة الإسلامية ارتفعت بفكرها إلىٰ أن جعلت أقوال العلماء وأفعالهم هي الجديرة بالتسجيل، وهذا اتجاه أصيل في الإسلام لم يسبق إليه، فظهرت كتب الطبقات: طبقات الصحابة والتابعين، وطبقات الفقهاء والمحدثين، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ ظهور طبقات الأطباء والمؤرخين والشعراء والأدباء... إلخ.

فالتاريخ الحضاري عندنا متفوق علىٰ التاريخ السياسي، وبسبب العناية به عناية كبيرة بدءًا من السيرة النبوية التي ضبطت

وقائعها بالرواية الصحيحة، وانتهاء بالتأريخ لكل مفاصل الحياة الاجتماعية والسياسية ظهر مئات بل ألوف المؤرخين(١)، وظهر ما يزيد علىٰ عشرة آلاف كتاب في التاريخ.

ولم تُعْنَ أمة بتاريخ رجالها كالأمة الإسلامية، فإذا ألف أحد العلماء كتابًا في الطبقات أو التاريخ العام يأتي آخر ويكمله حتىٰ عصره فيما سمي «بالتذييل» فكتاب «جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس» للحميدي ذيل بكتاب «بغية الملتمس» ثم «الصلة» لابن بشكوال ثم «التكملة» لابن الأبَّار.

بينما نرىٰ أن التاريخ كعلم لم يعترف به في أوربا إلا في أواسط القرن الثامن عشر، وأول كرسي للتاريخ في جامعة أوكسفورد كان في أواسط القرن الثامن عشر.

وما ضعف الاهتمام به عند المسلمين إلا في العصور المتأخرة حين ابتعدت الأمة عن القيادة والريادة، وقد علل المؤرخ «علي مبارك» ضعف الأمة الإسلامية بالنقص الملحوظ

(١) أحصىٰ الأستاذ شاكر مصطفىٰ عدد المؤرخين الذين ظهروا في التاريخ الإسلامي فاجتمع له أسماء خمسة آلاف مؤرخ.

في وعيهم بالتاريخ، «والأمم التي لا تقرأ تاريخها معرضة لإعادة إنتاجه لغير صالحها»(١).

يقول الشيخ رشيد رضا: «فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلىٰ ما هي فيه من سعة العمران، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلىٰ العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلىٰ ذلك»(٢).

إن دينًا لا يزال يتلىٰ في كتابه أخبار عاد وثمود وقوم شعيب ولوط وأصحاب العجل ليَقضي علىٰ المتمسكين به أن يهتموا بالتاريخ ويعتبروه من العلوم التي لا يصح إهمالها، ولا يكره الكتابة عن تاريخ العظماء كعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعن تاريخ الأوطان إلا أصحاب المذاهب الهدامة.

العاقل هو الذي يتجلىٰ له شأن التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات، وستأخذه الدهشة حين يرىٰ أن كثيرًا من الذين

---

(١) محمد جابر الأنصاري «العرب والسياسة» القدس العربي (١١/ ٣/ ٩٨) والكلام لجورج سانتيانا.

(٢) «تفسير المنار» (١/ ٣١١).

يتصدون لتعليم الناس يجهلون ماضي هذه الأمة وحاضرها، مع أنهم من أكثر الناس حاجة إلىٰ التاريخ، ليعلموا مكامن الفساد في العقائد والأخلاق والعادات التي تسربت إلىٰ هذه الأمة وأضعفتها في دينها ودنياها.

ومن الملاحظ أنه في العصر الحديث وفي زمن الاستعمار الأوربي للبلاد العربية والإسلامية، كان التاريخ واحدًا من أهم مجالات الصراع، وذلك حين راح الغرب عن طريق كثير من المستشرقين يشوه التاريخ الإسلامي، وذلك عندما ركزوا علىٰ الفرق المنحرفة وضخموا من دورها، فالمستشرق «ماسنيون» يهتم بالحلاج والسهروردي المقتول –أي: أئمة الإلحاد– والمستشرق «جولدزيهر» يعتبر أن خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع موضوعة، وضعها المسلمون ليذكروا المساواة بين العرب والعجم، والمستشرق «مور» يذكر أن الإسلام نزل للعرب فقط، وتحريفاتهم وتخليطهم كثير، وليست هذه المقدمة هي المجال لسردها.

كان رد الفعل عند بعض الدارسين المسلمين هو التمجيد المطلق لهذا التاريخ دون فهم الماضي ودراسته دراسة واعية، ودون البحث عن أسباب الحوادث وأسباب الانتصارات

وأسباب التراجع.

إن رجال التربية والحكماء من الأمم الأخرىٰ يعدون التاريخ من أهم الوسائل لاستنارة الشعوب وأنه أكبر مربٍّ للأمم والأفراد.

وقد روي عن الحكيم الصيني «كونفوشيوس» قوله: «لقد حاولت أن أربي الخلق عن طريقة التعليم، فعلمت تلاميذي التاريخ كي يُلهموا بالعظيم من أعمال الإنسان، وكي يجدوا في دراسة طبيعة البشر ما يكبح جماحهم».

ويقول المؤرخ «كولنجوود»: «إن دراسة الواقع التاريخي ربما أعطت الإنسان نوعًا من الحكمة الواقعية تمكنه من العثور علىٰ طريق قويم»(١).

ويقول «هرنشو»: «التاريخ مدرسة لتعليم طريقة البحث السياسي إذ من الصحيح نسبيًّا أن التاريخ سياسة الماضي والسياسة تاريخ الحاضر، والتاريخ مدرسة تعلمنا الحذر واستقلال الرأي وسجاحة الطبع، إنها تهيئ لنا ملكة الاستدلال بالأفعال الظاهرة علىٰ البواعث والأفكار الباطنة»(٢).

---

(١) حسين مؤنس «التاريخ والمؤرخون» (١٦٧).

(٢) فتحي عثمان «مدخل إلىٰ التاريخ الإسلامي» (٥٠).

ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي: «إن القرآن عندما يقص علينا قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام فذلك ليشعرنا أن لنا في بناء الحق وهدم الباطل ونشر الهداية والخير أصلًا عريقًا ونسبًا طويلًا عريضًا، ومتىٰ شعر الإنسان الصحيح الفطرة بزكاء الأصل تحركت فيه نوازع النخوة، وهذا هو سر سلوك المربين للأمم في إشرابها تاريخها»(١).

ويعتبر القائد العسكري «نابليون» أن التاريخ هو الفلسفة الحقيقة وهو علم النفس الحقيقي(٢).

ويقول المؤرخ «كروتشي»: «وعلىٰ الفيلسوف الذي يكتب التاريخ أن يكرس نفسه للكشف عن الأسباب والنتائج والارتباط في حوادث التاريخ»(٣).

وبسبب هذه الغفلة عن أهمية التاريخ كتب الإمام السخاوي كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» أوضح فيه فضل هذا العلم وفوائده وَمَن مِنَ العلماء شارك فيه تحقيقًا وتعليقًا.

---

(١) «الأثار الكاملة» (١/ ٣٩٤).

(٢) ول ديورانت «قصة الفلسفة» (٥٧٩).

(٣) المصدر السابق (٥٧٩).

(٣)
الماضي والحاضر

يقول شاعرنا إقبال:

اقـرأ التـاريخ إذ فيـه العبـرْ ضاع قوم ليس يدرون الخبرْ

لماذا يضيع قوم لا يدرون الخبر؟ هل لأنهم لا يقرءون التاريخ وحسب؟ أم السبب هو أنهم لا يربطون الماضي بالحاضر، مع أن لغز الحاضر لا يحل إلا بوعي تاريخي بالماضي، وكلما كانت النظرة إلىٰ الماضي أكثر شمولا كان فهم الماضي أشد عمقًا، فالذي يعرف تاريخ أوربا يستطيع التعامل معها بسهولة أكثر، والذي يقرأ عن اعتماد أوربا علىٰ إيران لإضعاف الدولة العثمانية يستطيع تفسير ما يحدث الآن.

التاريخ هو ذاكرة الأمة، والذي يعيش بلا ماض يفقد ذاكرته، والذي يريد مشروعًا للمستقبل لابد أن يستشير الماضي.

القاعدة الهندسية تؤكد أنك إذا وصلت إلىٰ نقطة ما فمعنىٰ ذلك أنك أتيت من نقطة أخرىٰ.

يقول الرئيس «علي عزت بيجوفيتش»: «أنا لا أعرف تمامًا ماضي شعبي، ولكنني أعرف حاضره، أي: النتيجة ومن هذا الحاضر يمكن أن أستنتج الكثير عما سبقه»(١).

وإذا كان التاريخ هو الحركة فهو معاصر ولم يعد مقترنًا بالماضي وحده، والحركة مستمرة إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومؤرخ اليوم يدرس التاريخ كله دون أن يفرق بين الماضي والحاضر والمستقبل، «فكما أننا نحمل طفولتنا معنا عندما نصير شبابًا، وشبابًا عندما نصير كهولًا... وهكذا إلىٰ آخر العمر»(٢).

قد يحس الإنسان بالفرح لموقف حدث في الماضي وكأنه يحدث الآن، وعندما يستطيع الإنسان إحياء الماضي يكف الماضي عن أن يظل ماضيًا ولكنه يكون معنا الآن، بل هو يجري في الحاضر كما يجري النسغ الصاعد من الجذور إلىٰ ساق

(١) «هروبي إلىٰ الحرية» (ص١١٥).

(٢) حسين مؤنس «الحضارة» (١٢٥).

الشجرة وأوراقها.

الأمة الإسلامية ليست أمة منقطعة، بل هي عريقة الجذور تاريخها متصل الحلقات، وعندما كتب ابن اسحاق السيرة النبوية قسم كتابه إلىٰ: المبتدأ والمبعث والمغازي، وهو يعني بالمبتدأ تاريخ النبوات من آدم عليه السلام إلىٰ محمد ﷺ، وقد سمىٰ الطبري تاريخه: «تاريخ الرسل والملوك»، وتاريخ الرسل هو: أيام الله في أوليائه وأيام الله في أعدائه، والقرآن الكريم يطلب من الرسول ﷺ أن يقتدي بالأنبياء السابقين في صبرهم ودعوتهم لأقوامهم.

إن إعادة الماضي إنما يكون لإعادة الروح إليه «لإيجاد حياة قد خرجت من الحياة، ورد ميت من قبر مغلق إلىٰ كتاب مفتوح»(١).

وإعادة الماضي لا تعني الاستغراق فيه واتخاذه وكأنه تحفة فنية ينظر إليها الناظر ويتعجب من صنعها، فمثل هذا الاستغراق يجعل الإنسان بعيدًا عن الواقع، غريبًا عن الحاضر هناك فرق بين الاهتمام بالماضي وبين التعلق به، الاهتمام

(١) محمود محمد شاكر: تقديم لكتاب حياة الرافعي» (٥).

بالماضي يعني معرفة ما فيه من صواب وحق.

القرآن الكريم يقول للمسلمين مرشدًا لهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]: وكأنه يقول: خذوا العبرة وامضوا في طريقكم الذي ينفعكم في الدنيا والآخرة، ولا تقفوا حائرين مُبْلِسين.

بينما نرىٰ بعض الفرق المنحرفة تقف عند حادث قد مضىٰ، يعيدون ذكراه وكأن الدنيا وقفت هناك لا تحور ولا تكور، وهذا يختلف عن إعادة الماضي للاستفادة منه في الحاضر فقد اهتم المسلمون في القرنين السادس والسابع الهجريين اهتمامًا بالغًا بسيرة نبيهم ﷺ، وأعادوا قراءتها وكتابتها، وذلك بسبب المحن التي توالت عليهم من غزو التتار والصليبيين، ولعلهم يستفيدون دروسًا من تطبيق الرسول ﷺ للقرآن في الحياة العملية.

وعندما زلزل أهل دمشق بوصول التتار وهموا بالخروج من ديارهم، وجاءت رياح شديدة وثلوج غزيرة كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثبت الناس ويقول لهم: هذه مثل الخندق وسينصرنا الله! وانتصر المسلمون في مقاومة التتار في موقعة

«شقحب» التي حضرها ابن تيمية وكان من زعمائها وقوادها.

بعض المسلمين وفي نظرتهم للمستقبل يفهمون الأحاديث التي تذكر الفتن قبل قيام الساعة فهمًا مغلوطًا، يبررون بها قعودهم عن العمل والسعي لخير الأمة.

والصحيح أن أحاديث الفتن يجب أن تفهم علىٰ أن رسول الله ﷺ مثل الطبيب والمرشد الذي يخبر المسافرين إلىٰ أرض مجهولة، بما فيها من الأمراض، وما فيها من العقبات لأجل أن يبذلوا جهدهم في اتقائها، وهذه الأحاديث مثل صاحب الجسم القوي إذا أخذ غذاء يزيده قوة، ولكن الضعيف قد يزيده ضعفًا، فالرسول ﷺ إنما يحذر أمته مما سيقع.

وفي العصر الحديث أعاد اليهود تاريخهم القديم والمعاصر والذي أكثره زيف وأغاليط، ووظفوه لصالح مشروعهم الصهيوني الاستيطاني علىٰ أرض فلسطين، وهم لا يملون من ذكر قصصهم السابقة وأنهم مضطهدون مظلومون يستدرُّون به عطف الغرب والعالم.

وفي الوقت نفسه حاولوا محو كل شيء يتعلق بفلسطين

وأنها أرض إسلامية.

هناك من ينتقد هذا المنهج في استنطاق الماضي للحاضر والمستقبل، ولكنّهم لا ينتقدون الغربيين عندما يعيدون ذكرىٰ اليونان والرومان[١] ويعيدون ذكرىٰ «بلو تارك وأفلاطون ودانتي» ولا يفتأون يذكرون فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر.

«والواقع أن الكتابة عن الماضي لا تبطل في زمن من الأزمان، والكتابة عن النفس الآدمية وأسرارها في العظماء وغير العظماء لا تبطل في زمن من الأزمان»[٢].

إن السؤال الذي قد يثور هنا: هل يستطيع التاريخ أن يعطينا دروسا ثابتة أو شيئًا شبيهًا بالقوانين التي يمكن أن نستفيد منها في واقعنا ومستقبلنا هذا؟. مع اتفاق دارسي التاريخ والباحثين فيه أنه ليس علمًا مثل العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء تحكمه المعادلات الثابتة». ونحن إذا رجعنا للقرآن الكريم فسنجد جوابا علىٰ هذا السؤال فالقرآن وفي معرض

(١) أمريكا استلهمت فكرة مجلس الشيوخ من مجلس الشيوخ الروماني.
(٢) عباس محمود العقاد «ردود وحدود» (٢٨٧).

ذكره لقصص الأنبياء قال معقبًا علىٰ قصة نوح عليه السلام: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

يقول الشيخ رشيد رضا حول هذه الآية: «فهذه القاعدة هي الأساس الأعظم لفوز الجماعات والأمم في مقاصدها وغلبها علىٰ خصومها[١] قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ فهذا وعد من الله سبحانه وتعالى أن يمكّن للصالحين الذين يأخذون بأسباب النصر والتقدم.

ومن السنن المذكورة في القرآن أيضًا أن الأمم عندما تقع في الذنوب والمعاصي مثل كفر النعم والبطر والأشر فإن العقاب سيقع عليها في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن ذنوب الأمم ليست كذنوب الأفراد، فالأمم إذا ولغت في الفساد لابد أن يأتيها العقاب سواء كان ظاهرًا أو خفيًّا.

---

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٥٧٨).

ومن قواعد التاريخ أنه ليس محايدًا، فالأشرار يجب أن يدانوا ويبين حالهم، وقد أدان القرآن فرعون وجنوده، وحكم عليهم بالفساد ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨]

يقول أحد الحكماء: تستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت، ذلك لأن كل الوقت هو التاريخ».

إن تشبه المسلمين بأمم الكفر مما يتعارض مع الدين وهو من علامات الانهيار والهزيمة.

قال ابن تيمية: «وهذه المشابهة لليهود والنصارىٰ والأعاجم من الروم والفرس لما غلبت علىٰ ملوك الشرق، ودخلوا فيما كرهه الله ورسوله سلّط الله عليهم الترك الكافرين»[(١)].

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١١٨).

ويقول ابن خلدون واصفًا حال المسلمين في الأندلس في أواخر أيّامهم: «كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنّك تجدهم «المسلمون» يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، حتىٰ في رسم التماثيل في الجدران حتىٰ لقد يستشعر الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله!»(١).

وقد حاول بعض المعاصرين استنباط بعض القواعد التي يمكن للمؤرخ ملاحظتها والتنبّه لها، ومن ذلك:

١- إن أي إصلاح حقيقي لابد أن يثير قوىٰ معارضة لها مصالح مرتبطة بالوضع القائم.

٢- لا تستطيع أن تمنح إنسانًا سلطة علىٰ غيره دون أن يغريه ذلك بإساءة استخدامها، ولا يقدر علىٰ مقاومة إغراء السلطة إلا الأقلون(٢).

٣- أي أمة تغرق في الترف وتجنح إلىٰ السلم الضعيف فلن يمضي وقت طويل حتىٰ تفقد استقلالها وحريتها،

---

(١) «المقدمة» (٢/ ٥١١).

(٢) الأصل في الاسلام أن طالب الولاية لا يولىٰ، وقد قاوم إغراء السلطة كثير من الملوك والعلماء والصالحين.

والدولة التي تختل أمورها تُحتل أرضها. ما هي النتائج التي حصدها من أداروا ظهورهم للماضي وراحوا يقتبسون بعض مظاهر الحضارة الغربية، ويحاولون التشكل بها.

عندنا نموذجان معاصران: محمد علي باشا في مصر، وكمال أتاتورك في تركيا؛ أراد محمد علي وخلفاؤه من بعده أن يجعلوا من مصر قطعة من أوروبا فكانت النتيجة أن احتلت بريطانيا مصر، وماذا أصاب الفرد التركي من التغريب لقد عانىٰ قلقًا مخيفًا، لأنه غير حياته تغييرًا شاملًا قطع الصلة بماضيه ولم يتقن حاضره، والكتابة بالحروف اللاتينية جعلت الشاب التركي الحديث عاجزًا عن أن يقرأ تراثه الفكري لا باللغة التركية القديمة ولا بالعربية، ولم يكن التغيير في المجالين الاقتصادي والسياسي بل شمل كل الميادين، فأصبح التركي لا هو بالشرقي ولا هو بالغربي، لقد فقد هويته[١].

(١) لم تستطع الكمالية العلمانية المتطرفة فرض ثقافتها علىٰ الشعب التركي ورجع الأذان باللغة العربية، ورجع الحجاب، وحكم حزب العدالة والتنمية ذو الجذور الإسلامية، ونأمل أن تعود تركيا إلىٰ هويتها الإسلامية الحقيقية.

(٤)
التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري

دأب كثير ممن يكتبون في التاريخ أن يولوا اهتمامهم الأكبر للجانب السياسي منه، فيسردون تعاقب الدول والحكومات، وأسماء الخلفاء والملوك وما جرىٰ في أيامهم من حوادث.

والناظر لهذا الجانب سيرىٰ قممًا وسفوحًا ومنحدرات، وسيرىٰ عدلًا ورحمة، وكذلك إسرافًا وظلمًا، وسيرىٰ ملوكًا صالحين وآخرين أصحاب أهواء وسفك للدماء.

والحقيقة أن الذي يركز علىٰ الجانب السياسي ويهمل الجانب الحضاري فإنه يُفقد التاريخ الإسلامي جوهره، وهذا التركيز يُومِي بشكل غير مباشر إلىٰ إعطاء الأهمية للجانب السياسي علىٰ الجانب الحضاري، فهل نكتفي في التاريخ بأخبار المعارك وأسماء الملوك ونترك الذين بنوا صرح الفقه الإسلامي،

أو الذين اكتشفوا أسرار الداء والدواء، أو الذين نظموا التعاون الاجتماعي من خلال مؤسسة الأوقاف؟!

وقد شبه أحد المؤرخين التاريخ بالنهر الجاري فيه دماء وأشلاء والناس ينظرون إلىٰ النهر ولا ينظرون إلىٰ ضفافه وما عليها من حضارات وقيم أخلاقية وعلاقات اجتماعية وعلم وعمارة(١).

الجانب الحضاري في التاريخ الإسلامي بارز جدًّا، بل من الملاحظ أن ازدهار العلم كان أحيانًا في أحلك الظروف السياسية وفي فترات الضعف والتجزؤ، والسبب في ذلك هو أن العلم هنا مرتبط بالدين، فالعلماء بشتىٰ أصناف المعرفة يقومون بواجبهم تدينًا لا يريدون جزاء من الدولة.

سنجد في العصور المتأخرة نسبيًا أمثال ابن تيمية وابن خلدون، وسنجد ابن النفيس في الطب وابن البيطار في علم النبات، وسنجد في القرن العاشر الهجري أمثال ابن ماجد في علم البحار، وفي القرن الحادي عشر داود الأنطاكي في علم الصيدلة.

(١) وإذا لم يملك الجرأة أحدهم لتحطيم التراث، فلا يسمىٰ مجددًا، بل هو تقليدي حسب عرفهم.

يقول «جورج سارتون» في كتابه «المدخل إلىٰ تاريخ العلم»: «لقد كان التراث الإسلامي في حقل الأعشاب أعظم بكثير من تراث أي أمة أخرىٰ».

التاريخ الإسلامي ليس تاريخًا سياسيًّا فقط، بل هو تاريخ علماء، آلاف العلماء والأدباء والمؤرخين سنجدهم في كتب الطبقات، وإن جمهرة العلماء وقفت حياتها لخدمة الإسلام وكافحت الفساد وثارت في وجه الطغيان.

أمثلة من الجانب الحضاري:

١- المدارس، سواء كانت في المراحل الأولىٰ أوالمتقدمة، كانت منتشرة في كل أنحاء العالم الإسلامي، وكانت في الغالب أهلية ينفق عليها من الأوقاف الكثيرة التي يوقفها المحسنون علىٰ العلم وطلبة العلم، وكانت تكفي لكل ما تتطلبه المدارس من نفقات وما يحتاجه الطلبة من سكن أو كتب.

٢- الطب المتقدم جدًّا سواء من حيث البحوث والمؤلفات أو من حيث طرق المعالجة والمستشفيات العامة المستقرة والمتنقلة التي تتكفل بالعلاج والدواء.

٣- الأوقاف المتنوعة التي تجاوزت الإنسان ووصلت إلىٰ أوقاف للعناية بالحيوانات العاجزة أو التي تركها أصحابها.

٤- بناء المدن: وقد بني في تاريخ الحضارة الإسلامية أكثر من ثلاثمائة مدينة أكثرها باق حتىٰ اليوم، والذي بدأ هذا المشروع هو الخليفة العبقري عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هو أبو المدن، هو الذي أمر بتخطيط المدن في العراق والشام ومصر، وفي مدينة قرطبة كان هناك (٦٠٠) مسجد و(٣٠٠) حمام عمومي و(٨٧) مدرسة و(٢٠) مكتبة عامة.

٥- المكتبات العامة والخاصة: ومن الأمثلة التي قد يستغربها الإنسان أن مكتبة الأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر الأموي بلغت أربعمائة ألف مجلد، وكانت أكثر بيوت المسلمين في الأندلس تحتوي علىٰ مكتبة صغيرة أو كبيرة، وعندما تملك الإسبان وخرج المسلمون من الأندلس أحرق الطاغية «فرديناند» في ساحة غرناطة حوالي مليونين من المخطوطات التي خلفها المسلمون.

٦- المرأة والعلم: من يقرأ كتب الطبقات سيجد دائمًا

أسماء عالمات في الفقه والحديث والوعظ، وقد ذكرت كتب التاريخ أن حيًّا من أحياء قرطبة كان فيه مائة وسبعون امرأة يكتبون المصاحف.

٧- أهل الحرف والتقنية الذين بنوا المساجد العظيمة وطوروا وسائل الزراعة، وطوروا الأسلحة التقليدية، وأهل العلم بالبحار الذين استفاد منهم الأوربيون في اكتشاف أمريكا عن طريق الخرائط التي رسمها الجغرافيون.

٨- الاحتساب الذي وصل إلىٰ أرقىٰ درجة في المدنية والحضارة، فهناك محتسبون لمراقبة النقد واكتشاف النقود المزيفة، ومراقبة عمل الأطباء والصيادلة، ومراقبة الكتاتيب حتىٰ لا يُضرب الأطفال، والتفتيش عن نظافة المطاعم والمخابز وصحة المكاييل، وهذا كله داخل في دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٩- الحضارة الإسلامية حضارة غير استعمارية[1]؛ فلم تنهب

(١) «جمهرة المقالات» (٢/ ٩٧٢).

خيرات الشعوب الأخرىٰ وتكدسها لصالح فئة معينة ولم تبن الآثار الضخمة كما فعل الفراعنة والأكاسرة الذين يستخدمون نظام «السخرة» للشعوب المظلومة.

التاريخ السياسي والأمة:

إن وجود التمزق السياسي في بعض الفترات لم يمنع أن الأمة بقيت موحدة اجتماعيًّا وثقافيًّا، فكان من الطبيعي أن العالم أو أي مسلم يستطيع الانتقال إلىٰ أي بلد يريده ويقيم فيه، فليس هناك حدود ولا جوازات وتأشيرات «فهذه من بدع الدولة القومية» وليس هناك حواجز اجتماعية بسبب العرق أو اللون.

وفي ظل هذه الحضارة وصل المماليك إلىٰ أعلىٰ درجات السلطة، وقد حافظ الفرد في هذه الحضارة علىٰ القيم الإسلامية، وهذا مما ساعد علىٰ مقاومة الاستعمار في العصر الحديث، كما ساعد علىٰ مشاريع النهضة.

وإذا كان مبدأ الشورىٰ قد عُطِّل سياسيًّا بعد الخلفاء الراشدين، لكنه بقي حرًّا في نطاق الفقه والاجتهاد، وبقيت وحدة الأمة وسيادة الشريعة واستقلال الفقه واستقلال الأمة عن السيطرة الأجنبية.

يقول المؤرخ الأمريكي «ول ديورانت»: «لا يسعنا إلا أن نسلم بأن الخلفاء من أبي بكر إلىٰ المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموافقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم».

مقارنة مع تاريخ الغرب:

الذين ينظرون إلىٰ تاريخنا السياسي ويذكرون السلبيات، هؤلاء ينظرون إلىٰ تاريخ الغرب مجملًا دون تفاصيله؛ كالذي ينظر إلىٰ الجبل من بعيد فلا يرىٰ إلا القمم، وهكذا يذكرون شخصيات مثل نابليون وبسمارك وتشرشل وأدباء وعلماء، ونحن ننظر إلىٰ تاريخنا من قريب بتفاصيله فنرىٰ الأخاديد والسهول والجبال، والخط البياني للحضارة الإسلامية خط متصل غير منقطع قد يهبط ولكنه علىٰ الدوام يعاود الصعود، فحركة التاريخ ليست تقدمًا دائما كما يوردها بعض مؤرخي الغرب، ولكنها حرمة اجتماع وتشتت، وهداية وضلال كما يصورها القرآن الكريم.

المعجبون بتاريخ الغرب لا يعلمون أن ألمانيا قبل مائة عام كانت مقسمة إلىٰ (٣٩) دولة، ولا يعلمون عن حروب الثلاثين والحروب السبعين بين دول أوربا، هذا عدا عن الحربين

العالميتين الأولىٰ والثانية.

الغرب لا يتدخل في الخصوصيات، في الحياة الخاصة للرئيس أو العالم، فالكتاب يرسمون صورًا زاهية للقادة ولما قدموه من خدمات لأمتهم، فيأتي تاريخهم وكأنه كله بطولات، ولكن بعد وفاة هؤلاء القادة تظهر الفضائح الأخلاقية سواء في مذكراتهم أو ما يكتب عنهم، ونحن في تقويمنا للأعلام نهتم بعقيدتهم واخلاقهم كما نهتم باعمالهم.

لا أحد ينتقد الغرب إذا رجع إلىٰ الماضي «أفلاطون، دانتي، توما الاكويني» ولكن إذا رجعنا إلىٰ تاريخنا نستنطقه ونحلله. يقولون: ماضاويين، سلفيين تقدسون الماضي ولا تعيشون الحاضر، فهل الرجوع إلىٰ الماضي حلال علىٰ الغربيين حرام علينا؟(١).

- نستعمل كلمة استعمار في الاصطلاح المعاصر وليس بالمعنىٰ القرآني الذي هو العمران.

(١) انظر «ول ديورنت»، دروس التاريخ صفحة (١٥).

(٥)
من يقف خلف تشويه تاريخنا؟

إن المتتبع لما ينشر هذه الأيام في بعض الصحف والمجلات أو في المواقع «الإلكترونية»، وكذلك ما يقال ويتحدث به في الندوات الثقافية. سيلاحظ ظهور فئة من الناس تدعي التجديد في التراث والثقافة، والتجديد عندها هو تحطيم الماضي، وخاصة التاريخ السياسي والحضاري للأمة[١]؛ فتجدهم يلمزون ويغمزون من قريب أو بعيد في الدولة الأموية خاصة، وأنها دولة استبدادية، ثم يرجعون قليلا إلىٰ الوراء ليقولوا: إن الإسلام لم يطبق إلا في عهد الخلفاء الراشدين بل في عهد أبي بكر وعمر فقط.

---

(١) وإذا لم يملك الجرأة أحدهم لتحطيم التراث، فلا يسمىٰ مجددًا، بل هو تقليدي حسب عرفهم

هذا التعميم الجائر الظالم من هذه الفئة يقول عنه أديب العربية الشيخ محمود محمد شاكر: «يلقي ظلًّا كثيفًا قاتمًا كئيبًا علىٰ العصور الأولىٰ، يدفع إلىٰ الاستخفاف والتحقير والغلو في التهزؤ بأهل هذه العصور، والشك في أمورهم، ويعمي عن معرفة الحقائق»[(١)].

ليس بِخَافٍ علىٰ المسلمين العلماء منهم والمؤرخين أن دولة بني أمية ليست مثل دولة الخلفاء الراشدين، هناك أخطاء وهناك ظلم من بعض الولاة، وهناك وضع للأموال في غير محلها، ولكن أكثر ملوك الأمويين «كانوا من الحزم والعلم وحسن السياسة والإدارة علىٰ جانب عظيم، والسواس منهم معاوية وعبد الملك وهشام...»[(٢)] وواسطة عقدهم وممن تفتخر بهم هذه الدولة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأحواله وأعماله معروفة مشهورة، كما أن فتوحات بني أمية هي أبقىٰ الفتوحات بعد فتوحات الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وأبعدها أثرًا في اتساع نطاق الإسلام ونشر العربية.

---

(١) «جمهرة المقالات» (٢/ ٩٧٢).

(٢) محمد كرد علي «خطط الشام» (١/ ١٦٧).

يقول الشيخ رشيد رضا عن بني أمية: «وكانت حرية انتقاد الحكام والإنكار عليهم علىٰ كمالها، وأما الاستبداد فكان مصروفًا للمحافظة علىٰ سلطتهم وقلَّما تسرب شيء منه إلىٰ الإدارة والقضاء»(١).

وهذا قتيبة بن مسلم الباهلي من ولاة الدولة علىٰ خراسان يخطب في الناس: «إن الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات، وقد وعد الله نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق، ووعد المجاهدين أحسن الثواب، فوطِّنوا أنفسكم علىٰ أقصىٰ أثر وإياي والهوينا».

نعم لم يكن الحكم شوريًّا كما ينبغي وكما هو الواجب، ولكن وجود العلماء والقضاء المستقل والشريعة المطبقة يحد كثيرًا ممن تحدثه نفسه بظلم العباد، وكأن البعض يقارنهم بالحكام المستبدين في العصر الحديث الذين يتبعون أهواءهم وشهواتهم ولا يطبقون شرع الله، ويتعاملون مع أعداء الإسلام ولا رادع لهم من دين أو خلق فالمقارنة كلها ظلم وجهل.

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٢٠٤).

ومن جهة أخرىٰ كانت الحضارة في جميع نواحيها العلمية والاجتماعية علىٰ أفضل ما يكون، فلماذا يُنظر للصورة من جانب واحد ولا يُنظر للعدد الكبير من العلماء والفقهاء ومن الأبطال الفاتحين؟!

إن هذا التوقيت في الاستهزاء بتاريخنا جاء بعد انتفاش الباطنية والشعوبية في هذه الأيام، ومن هنا تأتي الشكوك والريبة في الذين يتظاهرون بالحيادية والتعالم، ويتفاصحون أنهم لا يريدون إلا النقد المجرد.

ولعل الخَطَل جاء من الاعتداد بالنفس ممن يكتب في التاريخ، والإفراط في الثقة في فرضيات لم توضع علىٰ محك التوثيق.

وفي كل تواريخ الأمم هناك الواجهة القاتمة لبعض السياسات الظالمة، وهناك الوجه الحضاري من نبل الرجال وعطايا الخير.

لا أحد يمنع أحدًا من نبش التاريخ إذا كان المقصود بيانًا لحقائق أو تصحيحًا لمعلومات خاطئة، أو نقدًا للعبرة، ولكن

ليس لتغلغل شعوبي باطني حاقد، أفسد الحياة الثقافية وجعل تاريخنا مما يدعو إلىٰ اليأس والإحباط.

ما هو الميزان الذي نستطيع به أن ننصف الناس في أمور معقدة من نوازع البشر واختلاف الطبائع والوجهات: إنه نوع من أنواع الميزان الذي ذكره الرسول ﷺ في تزكية الأجيال الثلاثة «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**».

«ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ ولا يداهن في دين الله، ولا يأمر الناس بما يعلم أن الحق في خلافه، ولا ينعت أحدًا بصفة إلا بما علمه ربه وبما أنبأه»(١).

وليس هذا موضع تفصيل تاريخ كل خليفة من خلفاء بني أمية، ولكن هنا موضع للكشف عن أهواء الذين ينقضون غزلهم بعد قوة أنكاثًا، لا شك أنّ هناك أصابع خفية تثير هذه البلبلة ويتلقفها بعض الناس الذين يريدون الظهور بمظهر الناقد وليس المستسلم لعقلية الفخر بالتراث دون غربلة وتمحيص. وسواء علم هؤلاء أم لم يعلموا مَن وراء ذلك؛ فإنها إثارة للأحقاد

(١) محمود محمد شاكر «جمهرة المقالات» (٢/ ٩٨٩).

وشغب علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وعلىٰ التابعين، وعلىٰ العرب الذين أزالوا الدولة الفارسية ففي دولة بني أمية كانت بقية من الصحابة علىٰ قيد الحياة، وكان جيل التابعين وتلامذتهم الذين نشروا الإسلام وعلَّموا الأجيال.

وإذا كان الذين ينفثون هذه الأحقاد من الشعوبيين الجدد يعتبرون أنفسهم مسلمين فإن إسلام أجدادهم كان علىٰ يد الفاتحين العرب.

وكان التفاف الناس حول هؤلاء الفاتحين فيه خير كثير، وعندما ذهبت هذه القيادة تفتت الدولة إلىٰ دويلات في العصر العباسي الثاني.

الفصل الثاني

دروس التاريخ

(١)
العزَمات البَكرية

بعد وفاة الرسول ﷺ وانتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ وُفق الصحابة لاختيار أفضلهم وأعلمهم لخلافة النبوة في تسيير أمور المسلمين. كان اختيارًا صحيحًا ومسددًا، والتشاور الذي وقع في سقيفة بني ساعدة ونتج عنه اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان من قبيل تبادل الآراء حول أمر كبير، إنه أمر الأمة، وحتىٰ لا يبقىٰ المسلمون دون قيادة ولو ليوم واحد.

وهذا التشاور لا يقال عنه هو أول خلاف وقع في الأمة كما يصوره بعض القدماء من كتاب الفرق أو التاريخ، ويقلدهم فيه بعض المعاصرين، بل كان توفيقًا من الله سبحانه أن أسرع المهاجرون للقاء إخوانهم الأنصار، وتكلم كل طرف بحرية تامة وكلٌّ أدلىٰ بوجهة نظره دون إكراه، ودون رفض لسماع وجهة النظر المخالفة.

ليس المجال هنا في هذه الورقات لتعداد فضائل أبي بكر وأعماله العظيمة ومناقبه الجمة، ولكن هذا الصحابي الكبير واجه في بداية خلافته أمورًا جسامًا، بل خطيرة، واجه حركة الردة التي انتشرت بين صفوف القبائل العربية وفي كل أنحاء الجزيرة، وثبت علىٰ الإسلام مدن الحجاز مكة والمدينة والطائف، وكذلك القبائل بين مكة والمدينة مثل: مزينة وغِفار وجُهينة[١] كما واجه الاعتراض علىٰ إرسال جيش أسامة بن زيد إلىٰ الشام، هذا الجيش الذي كان قد جهزه رسول الله ﷺ، والجيش قد تعبأ واستعد ولكنه لم يتقدم إلىٰ الشام بسبب وفاة الرسول ﷺ والمشكلة المثارة: هل يرسله حسب الأوامر السابقة أم يحتفظ به ليواجه حركة الردة؟

---

(١) يذكر بعض الكتّاب أنه إذا استثنينا الحجاز. فإنَّ الجزيرة العربية كلها قد ارتدت وهذا كلامٌ غير دقيق فإنَّ بعض القبائل وقفت موقفًا مُشرّفًا مثل طيئ، وقد نصحهم عديّ بن حاتم بالثبات علىٰ الدين، وحتىٰ القبيلة الواحدة كان فيها أفراد أو فروع لم يرتدوا مثل تميم، وفي اليمن ثبتت قبائل مثل النخع والسكون، وفي بني حنيفة (قبيلة مسيلمة الكذاب) هناك أفرادٌ ثبتوا علىٰ الإسلام، وفي عُمان ثبت بنو ناجية وبنو عبد القيس. انظر: مهدي رزق الله احمد «الثابتون علىٰ الإسلام أيام فتنة الردة» ط. دار طيبة الرياض.

وقد أشار كثير من الصحابة علىٰ الصديق بألا يرسل الجيش لاحتياجه إليه، وممن أشار عليه بهذا الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهنا يسعف أبا بكر تمسكُه بما فعل الرسول ﷺ أو أراده، إنه الاتباع الذكيُّ الذي يعلم ما وراءه من خير وصواب؛ فأصر علىٰ إنفاذ جيش أسامة وقال قولته المشهورة: «والله لا أُحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا، ولو أن الكلاب جرَّت بأرجل أمهات المؤمنين، لأجهزنَّ جيش أسامة». وهذا من فقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعزماته المباركة، والدليل علىٰ ذلك: أن خروج الجيش في ذلك الوقت كان من أكبر المصالح؛ فإن العرب لما رأوا الجيش أُرعبوا وقالوا: لولا أن في القوم منعة شديدة ما خرج هؤلاء، وتقدم الجيش بقيادة أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الشام ورجع غانمًا سالمًا.

كانت حركة الردة علىٰ درجة من الخطورة، وكأنها تريد أن تعصف بدولة الإسلام الناشئة، فقد انحاز بنو حنيفة إلىٰ مسيلمة الكذاب، والتف غالب بنو أسد وغطفان علىٰ طليحة الأسدي، وقبائل من بني تميم مع سجاح الكاهنة، وتغلب الأسود العنسي علىٰ مناطق كثيرة من اليمن، تكلم الصحابه مع الصديق، وكان

بعضهم يرىٰ ترك هؤلاء في منعهم للزكاة وتألفهم حتىٰ يتمكن الإيمان من قلوبهم، وكلم عمر أبا بكر فقال له: كيف تقاتل الناس وقد قال الرسول ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**». فقال أبو بكر: إن الزكاة من حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ: «**لأقاتلنّهم علىٰ منعه**» قال عمر: فما هو إلا أنْ رأيت أنّ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

إن غضبة أبي بكر هي غضبة الواثق من الحق، الواثق من العاقبة، وقد يظن بعض الناس أنه شيء يخالف المعهود والمنظور من طبيعة أبي بكر وطبيعة عمر رضي الله عنهما، فهم يعرفون عمر الشديد الحازم ويعرفون أبا بكر اللين الرقيق، ولكن الحقيقة أن لا عجب في ذلك، فهذا هو أبو بكر، سهل إلىٰ أصعب مدىٰ وطاقة هائلة مذهلة مستقرة تحت جوانح هذا الوديع[١].

وصلابة أبي بكر في حروب الردة لم تكن صلابة «سلبية»

(١) خالد محمد خالد: وجاء أبو بكر (٥٩).

تقول «لا» في موضع «نعم» ولكنها كانت صلابة تثوب إلىٰ قوة لا شك فيها، قوة مصدرها الاقتداء، إنها قوة عظيمة(١).

والمعهود من أخلاق الناس ليس هو الإنسان كله، بل في الإنسان شيء كثير مما ليس يعهده الناس، فالشدة في أبي بكر موجودة تظهر في مناسباتها واللين في عمر موجود يظهر في مناسباته(٢).

علم الصحابة صواب أبي بكر في إعلان الحرب علىٰ المرتدين فَجيَّش الجيوش وأرسلها إلىٰ كل منطقة وكل قبيلة، وعلىٰ رأسها جيش يقوده خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما هىٰ إلا أشهر قليلة إلا وكانت بشائر النصر وهزيمة المرتدين، ورجعت الجزيرة العربية مسلمة مستسلمة للاسلام، وسيشارك الذين تابوا ورجعوا إلىٰ الإسلام في الفتوحات الإسلامية زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن أبا بكر عاقبهم في تلك الفترة -وهو علىٰ حق- بألا يشاركوا مع المسلمين في الجهاد في سبيل الله؛ إنها سياسة إسلامية فيها الحذر من المرتدين، ويكتب أبو بكر إلىٰ

(١) عباس محمود العقاد «عبقرية الصديق» (٧٣).
(٢) المصدر السابق (١٣٣).

خالد، وعياض بن غَنْم: «لا يغزوَنَّ معكم أحد ارتد حتىٰ أرىٰ رأيي» وحتىٰ بعد أن استقرت الأمور رأىٰ عمر أن يشاركوا في القتال ولكن لا يترأس أحدهم علىٰ أكثر من مائة.

لقد تعلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الحزم وهذا العزم من حبيبه ﷺ حين لم يقبل من وفد ثقيف حين جاءوا إليه يعرضون عليه أن يزيح عنهم الصلاة، فقال لهم الرسول ﷺ: «**لا خير في دين لا صلاة فيه**»، وكذلك قال أبو بكر: «**لا خير في دين لا زكاة فيه**».

وتعلمها من الرسول ﷺ حين تهيأ لغزوة أحد ولبس لأمته، وظن بعض الصحابه أنهم أكرهوه علىٰ الخروج إلىٰ أحد فقال لهم: «**ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتىٰ يناجز**».

فمن صفات القيادة الناجحة عدم التردد بعد العزيمة.

إن موقف أبي بكر هو موقف الثبات علىٰ الحق والطاعة المطلقة للإسلام، وأبو بكر وهو أفقه الصحابة كان يدرك الآيات التىٰ تحذِّر النبي ﷺ أن يحيد عن الحق وتطلب منه الاستمساك بالوحي كله ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ

نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١٢].

في علم الإدارة الحديث، يصفون شخصية القيادة الحازمة: التي تحافظ علىٰ تفكير واضح، ومنطقي، رغم المصاعب، وتبحث عن الحقيقة وتمسك بها بكل إصرار مهما كلف الأمر، وتثبت في المأزق بكل صبر ولو انسحب الجميع من حولها، وقدرة علىٰ اتخاذ القرار بحيث لا يدع للشك والتردد سبيلًا إلىٰ نفسه.

ويرىٰ مالك بن نبي في محاربة أبي بكر لأهل الردة ومانعي الزكاة موقفًا عظيمًا، يجب أن نستلخص منه العبر الكافية لكل حركة إصلاح أو تغيير.

والعبرة التي نأخذها: «أننا إذا لم نحفظ في عقولنا وقلوبنا مقدمات ومسلمات المبادئ التي نريد تحقيقها، فسوف لا نفقد عقالًا فقط، بل نفقد روح الإقدام، ويجب علىٰ دعاة الإصلاح والتغيير أن يَعَضوا علىٰ مبادئهم بالنواجذ إذا أرادوا أن يضمنوا لها عدم الانحراف عن المسار»[(١)].

(١) عبد اللطيف عبادة «صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي» (٩٠).

ماذا ستكون الجزيرة العربية لولا لطف الله بهذه الأمة وأن قام أبو بكر بالمهمة الملقاة علىٰ عاتقه أحسن قيام؟! ماذا ستكون النتائج الكارثية لو ترك الأمر للحلول السلمية أو الدبلوماسية كما يقال اليوم، مع هؤلاء الأعراب الجفاة الذين تعودوا علىٰ الفوضىٰ وعدم الخضوع لدولة ونظام والعصبية القبلية هي رأسمالهم الذين يقولون: «كاذب ربيعة خير من صادق مضر» ويقصدون بصادق مضر الرسول ﷺ؟!

هؤلاء الذين لا يفقهون تأسيس الدول وإقامة المدنية والحضارات، والخضوع لتشريع يراعي فطرة الإنسان، وهو الذي يؤسس لمدنية يعيش الإنسان في كنفها من غير شقاء ونكد.

كيف سيكون وضع أهل السنة زمن المأمون العباسي والمعتصم والواثق لولا أن هيأ الله للمسلمين رجلًا كالإمام أحمد بن حنبل وإخوانه من العلماء الذين وقفوا أمام هذه الفتنة وهذه المحنة، وانهزمت البدعة وبقيت السنة؟!

إنه شبيه بموقف أبي بكر رضي الله عنه.

ماذا لو وقف العلماء في العصر الحديث وقفة صريحة

واضحة أمام الخطر الباطني الشعوبي الصفوي، وذكروا الرأي الشرعي في هذه الفرق، حتىٰ يعصموا العوام وأنصاف العوام من الانجرار والانخداع بهذا السراب وهذا الدجل السياسي، وحتىٰ لا يقعوا في حمأة هذا النفاق؟!

ماذا لو لم يكن هناك مجددون يعيدون للإسلام نقاءه وصفاءه، ولو تُرك الحبل علىٰ الغارب في قضية البدع التي سيضاف إليها في كل عصر بدع جديدة فإنها تغطي علىٰ الأصل، ويتراكم عليه الغبار، فلا يرىٰ الناس الصورة الصحيحة؟!

ماذا لو وقف العلماء المشهورون المعروفون في هذا العصر أمام بدعة الإرجاء التي ظهرت أخيرًا واستهدفت خلال سنوات الدعاة الصادقين بالجرح والسب والشتم، وكان لها الأثر الواضح في التشتت والتفرق؟!

وأعتقد لو أن العلماء وقفوا موقفًا واضحًا صريحًا لتغير الأمر، ولكنهم سكتوا وربما لم يظنوا أن الأمر سيبلغ هذا المبلغ من التشويش والفوضىٰ.

إن الفتن ما هي إلا ابتلاءات تكشف عن زيغ الزائغين، كما

تكشف عن نماذج الإيمان، والصبر والشجاعة، وتظهر استبصار أهل العلم ومعرفتهم للحق والباطل، وقد خرجت الدعوة الإسلامية زمن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منتصرة في أول امتحان ليقينها وصلابتها.

(٢)
الزحف البطيء

ابتعث الله ﷻ محمدًا ﷺ بهذا الدين القويم، دينًا عامًّا للبشرية كلها، وخاطب الناس من حيث كونهم «ناسًا» وليس لقبيلة معينة أو أقوام معينين أو فئة خاصة. رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات وهو خاتم الأنبياء فلا نبي بعده قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وإن انتشار هذا الدين ودخوله في قلوب الناس لَمِمَّا يفرح المسلم ويسعده، لأنه يتمنىٰ إنقاذ الناس من النار، وإذا أسلم علىٰ يديه أحد فهذا مما يزيد في اغتباطه وانشراح صدره!

ولكن ألا يحتاج هذا الوافد الجديد الذي أسلم حديثًا إلىٰ تعليم وتدريس؟!

ألا يحتاج إلىٰ من يفقهه في الدين وخاصة أصول الإسلام؟!

ألا يحتاج إلىٰ أن يترك ما كان عليه من وثنية أو جاهلية أو من أفكار مشوشة عن الله ﷻ أو عن الكون والإنسان؟!

هذا إذا كان الأمر عاديًا وطبيعيًّا، ولكن ماذا لو دخل في الإسلام لأغراض خاصة لأغراض الهدم من الداخل، لماذا لا نتريث في هذه الحالة ونقف قليلًا، ولا نكون من الغافلين.

وحتىٰ نتأكد ويتبين لنا الأمر واضحًا جليًّا بدأ الرسول ﷺ دعوته بإنذار قريش ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] ثم ما حول مكة، ثم العرب قاطبة وأسلمت الجزيرة العربية قيادها للإسلام. وبعد وفاته ﷺ اختار المسلمون أبا بكر رضي الله عنه خليفة، وكان هذا الاختيار من التوفيق الذي رُشد اليه المسلمون، فقد استطاع بحكمته وحزمه أن يحتوي الأزمة الأولىٰ التي حدثت بعد الرسول ﷺ، وقد كانت أزمة عاصفة بسبب دخول أعداد كبيرة من سكان الجزيرة العربية في الإسلام ولم يتعمق الإيمان بعد في قلوبهم، وارتدت مناطق كثيرة وقبائل كبيرة وبقي الحصن الحصين للإسلام مع الخليفة الراشد وهم المهاجرون

والأنصار وسكان المدينة ومكة وما حولهما في منطقة الحجاز.

كان موقف الصديق حازمًا حاسمًا في قتال المرتدين وإرجاعهم إلىٰ هذا الدين، وعادت الجزيرة العربية أرضًا صلبة ومركزًا أساسيًّا للفتوحات الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وزادت قوة واتساعًا في عهد عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فانساح العرب المسلمون شرقًا وغربًا، يبلغون الناس هذا الدين وأسلمت البلاد المجاورة طوعًا لا كرهًا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

واستمرت الفتوحات ودخلت في الإسلام أمم شتىٰ، أمم وارثة لحضارات قديمة، وأمم تحمل أوزارًا من بقايا ماضيها أفكارًا وعادات وتقاليد، «كل الأشياء وقعت نفس الوقت وبسرعة خاطفة: الفتوح، الهجرات، قيام الدولة، الحاجة إلىٰ الاجتهاد، أهل البلاد المفتوحة يدخلون في الإسلام جماعات ضخمة...»[(١)].

كانت الأمة في دور التأسيس، وهذه الوفرة في الفتوحات

(١) حسين مؤنس «تاريخ الفكر العربي» (١٦٧).

تحتاج إلىٰ وقفة وإلىٰ تريث، وذلك لينصهر القادمون الجدد في المجتمع الإسلامي الناشيئ.

وحتىٰ يكتمل التجانس في صورته الكبيرة كما كان في نواته الأولىٰ «المهاجرون والأنصار والعرب في الجزيرة» ولأن عدم التجانس سيكون له آثار سلبية علىٰ العقيدة وعلىٰ السلوك، لابد من العناية العاجلة لتربية هذه الشعوب علىٰ المفاهيم الإسلامية التي هي جديدة عليهم، وإلا تعرضت الأمة لخطر اختلاف الآراء واختلاف القلوب «وإذا كان هذا الدين في غاية الحسن، وهو في الوقت نفسه ناسخ لما قبله من الأديان، فغير بعيد أن يكثر عدوه وتزدحم التخاليط عليه، وتمتلئ القلوب غيظًا عليه»(١).

وقد تحقق هذا في الواقع، امتلأت القلوب غيظًا عليه من بعض الفئات الحاقدة التي تشعر أن الإسلام قوَّض إمبراطوريات كانت تفتخر بها، وهدم عروشًا ظالمة ما زالت تحن إليها، وبين هذه الفئات نشأت الشعوبية، التي تحتقر جنس العرب وتصفهم

(١) أبو الحسن العامري «الإعلام بمناقب الإسلام» (١٩٣).

بأقبح الصفات، وهي دعوة لهدم الإسلام من الداخل ونشأت الزندقة والاستهزاء بالدين ليقال عن صاحب هذه الزندقة أنه من «التقدميين» في اصطلاحنا اليوم.

كانت رغبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هي التروي وعدم التسرع والتوسع في الفتوحات قبل أن يثبت المسلمون أقدامهم في البلاد المفتوحة وحتىٰ يترسخ الإسلام فيها وتنتظم الأمور، فمن المسلَّم به أنه لابد من مرور الوقت لتتحول التعاليم إلىٰ صفة راسخة وإرادية.

كان هذا واضحًا في تفكير عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يروي الطبري عنه: «حسب أهل البصرة سوادهم والأهواز، وودت أن بيننا وبين فارس جبلًا من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم».

لم تتوقف الفتوحات ولكنها رغبة داخلية، إحساس داخلي يبين عن عبقرية عمر في فقه سنن المجتمعات وعقابيل الفتوح دون تثبت وتريث، ودون تعليم القادمين الجدد الإسلام، وقد أصيب هو شخصيًا من عقابيل ذلك الانفتاح الكبير، فقال لابن عباس عندما علم أن الذي طعنه أثناء صلاته بالمسلمين في

المسجد النبوي هو علج من علوج الفرس: «هذا من عمل أصحابك، كنت أريد ألا يدخلها «المدينة» علج من السبي فغلبتموني»(١).

قد يُقال هنا: لماذا لم يمنع عمر دخول هؤلاء العلوج، وهو أمير المؤمنين وبيده القوة.

والجواب واضح: إن رأيه هذا هو رأي اجتهادي في السياسة الشرعية، وليس عنده دليل علىٰ المنع، إنها الحرية والشورىٰ، ولا يستبد الخليفة برأيه، ولكنه يقول لهم: غلبتموني علىٰ رأي ارتأيته.

ويقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخاطبًا ولاة الأمصار محذرًا لهم من ظلم الناس وإذلالهم: «لا تضربوهم فتذلوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم، فإن رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم»(٢).

---

(١) ابن سعد «الطبقات» (٣/ ٣٥٢).

(٢) شبلي النعماني «حكومة عمر» (٣٧).

وهي السياسة نفسها التي سار عليها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ فقد جاء في أحداث (٩٩ هـ): «وجّه عمر إلىٰ مسلمة بن عبد الملك وهو بأرض الروم يأمره بالقفول بمن معه من المسلمين، ووجَّه له خيلًا عتاقًا وطعامًا كثيرًا، وحث الناس علىٰ معونتهم»، وذلك عندما رأىٰ عمر ما لقي مسلمة وجنده من الجهد في حصار القسطنطينية وخشي علىٰ الجيش الفناء؛ أي: أن حفظ رأس المال «الجيش الإسلامي» أهم من الفتوح.

وكذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عامله علىٰ بلاد ما وراء النهر يأمره بإقفال المسلمين بذراريهم إلىٰ البلاد التي أظلها سلطان العرب منذ سنين قائلًا: «حسب المسلمين الذي فتح الله عليهم» وذلك لأن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ كان حريصًا علىٰ إصلاح البلاد وأهلها أولًا، وأن جمع الأفراد والمجتمعات علىٰ مفهوم «الأمة» مع العناية بالتربية التي تكوِّن المزاج العام هو الأَوْلىٰ.

ليس هذا إهمالًا للدعوة بين صفوف غير المسلمين ولا ابتعادًا عنها، بل هي واجب أساسي، فالمسلم يدعو كل الناس

إلىٰ هذا الخير وهذا الحق، وهو مأجور علىٰ ذلك، ولكن هل نفرح بكل قادم ولو كان دخوله لهوىٰ في نفسه أو مؤامرة وضغينة. أليست هذه العقلية أو هذه الغفلة مما أوهن الصف الإسلامي قديمًا «عبد الله بن سبأ وحديث الفتنة نموذجًا» وله أمثال في العصر الحديث، ألا يجب أن تتجه الجهود لتعليم المسلمين أولًا وتحصينهم وتثقيفهم حتىٰ يكونوا هم دعاة بأفعالهم وأقوالهم.

ألا يجب أن نلوم أنفسنا علىٰ هذه الخلخلة التي يحدثها القادمون الجدد الذين يحملون إرثًا ثقافيًا خاصًّا ولم يندمجوا في مجتمع الرشد، ولما يتفقهوا في هذا الدين؟ «لماذا لا ننظر إلىٰ ما في حقائب المسلمين الجدد» كما يقول الكاتب الفرنسي «دوغوبينو»[1] وهو ينتقد اتساع مذهب أهل السنة أكثر مما ينبغي، والحقيقة أنَّ الغلط ليس في اتساع مذهب أهل السنّة ولكن في عدم التريث وعدم الحذر.

أسلم أناس من أهل الغرب وحسن إسلامهم وهذا شيء يُفرحنا، ولكن بعضهم تحول فجأة إلىٰ أستاذ يريد تعليم

(١) شكيب أرسلان «حاضر العالم الإسلامي» (١/ ١٨٦).

المسلمين دينهم قبل أن يتمكن هو من دراسة الإسلام دراسة وافية، بل إنّ بعض المسلمين وبسبب طيبة قلوبهم يسألون هؤلاء المسلمين الجدد في قضايا كبيرة وقضايا فقهية؟!

وقد عاد أصناف من العلمانيين والليبراليين واليساريين في البلاد العربية إلىٰ جذورهم الأصيلة، إلىٰ هوية الأمة وثقافتها وعقيدتها، وهذا شيء طيب وهو دليل علىٰ فشل هذه «الأيدلوجيات» الغريبة عن حضارتنا، ولكن بعضهم أيضًا تحول إلىٰ مُنظِّر إسلامي قبل أن يتمكن من التعمق في دراسة الإسلام وخاصة أصول هذا الدين، ثم يخلط الإسلام بأفكاره السابقة التي لم يتخلص منها، وينتج عن ذلك إسلام هجين أصبح يُسمّىٰ بـ«اليسار الإسلامي» والإسلام الليبرالي، ومن الإنصاف أن بعضهم يجيد الكتابة عن الواقع لأنه عرف الشر فأصبح واضحًا لديه أكثر من غيره.

إنّ سياسة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتوحات هي سياسته أيضًا في اختيار الرجال، فكان يعجبه في قيادة الجيوش الرجل المكيث الذي لا يتعجل ولا يتهور.

إننا نعيش في عصر كثر فيه التخليط، وسهل الوصول عن

طريق الإعلام إلىٰ عقول الناس وقلوبهم، فلابد من تفتيش الحقائب، ولابد من الانتظار والتروي لتستقيم الأمور علىٰ ركن ركين من الوحدة والتماسك الاجتماعي وفقه دقيق للكتاب والسنة.

(٣)
مقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
هل هو حادثة عادية

يقول الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنني أعتقد منذ عقلت أن دسائس المجوس هي التي مزقت كلمة سلفنا ودسائس الإفرنج هي التي فرقت كلمة مسلمي عصرنا»(١).

ويقول: «لو أن المسلمين بذلوا من العناية لإعادة الخلافة إلىٰ نصابها عُشْر ما بذلت فرق الباطنية لإفسادها لعادت أقوىٰ مما كانت وسادوا بها الدنيا كلها»(٢).

ونقول للشيخ رشيد: عادت دسائس المجوس في عصرنا وتحالفت مع الإفرنج ضدنا، هذه المجوسية التي لم تسلم أبدًا،

---

(١) شكيب أرسلان «رشيد رضا وإخاء أربعين سنة» (ص٣١٦).
(٢) رشيد رضا «الخلافة» (١٥٢).

ولكنها لبست لبوس التشيع لآل البيت لتمارس الدس والهدم من الداخل، وهي حاقدة علىٰ الفاتحين العرب الذين قوضوا عرش كسرىٰ الذي مزّق رسالة الرسول ﷺ وهؤلاء الفاتحين وهم الذين أزاحوا الإمبراطورية الفارسية إلىٰ غير رجعة.

وقد أشار الرسول ﷺ أن الفتن تأتي من المشرق، وهو ما وقع فعلًا، فقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ وأشار بيده نحو المشرق فقال: «**ها إن الفتن من هاهنا، ها إن الفتن من هاهنا إن الفتن من هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان**»(١).

والمقصود: هو أن يتنبه المسلمون إلىٰ مصدر الشر والفساد ليقطعوا دابر هذا الشر قبل استفحاله.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فلينظر كل عاقل فيما يحدث في زمانه وما يقرب من زمانه من الفتن والشرور والفساد؛ فإنه يجد معظم ذلك من قبل الرافضة»(٢).

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٩/ ١٤٠).

(٢) «منهاج السنة» (٣/ ٢٤٣).

وأول دسيسة **من دسائس المجوس** هو مقتل الخليفة الثاني وأعظم شخصية إسلامية بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي تولىٰ كِبْر هذه الجريمة فارسي مجوسي كان عبدًا للمغيرة بن شعبة، واسمه فيروز وكنيته أبو لؤلؤة، فهل كانت حادثة عادية، جريمة قتل ككل الجرائم أم أنها مؤامرة خُطِّط لها بدقة، وأن جذورها أعمق مما ظن المسلمون، وطاقتها أكبر من طاقة أبي لؤلؤة والهرمزان وأعوانهم بالمدينة.

السبب الظاهر للحادثة:

جاء في «طبقات ابن سعد» رواية عن الزهري قال: كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة، حتىٰ كتب المغيرة بن شعبة وهو علىٰ الكوفة يذكر له غلامًا عنده صانعًا. «يتقن عدة مهن» ويستأذنه أن يدخل المدينة ويقول: إن عنده أعمالًا ما كثيرة، إنه حداد نقاشٌ نجار فأذن له، فضرب عليه المغيرة كل شهر مائة درهم، فشكا الغلام «أبو لؤلؤة» إلىٰ عمر شدة الخراج «ما يدفعه إلىٰ المغيرة» فقال له: ما خراجك بكثير في جنب ما تعمل فانصرف ساخطًا، فلبث عمر ليالي فمر به العبد، فقال عمر: ألم أحدث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحىً تطحن بالريح

فالتفت اليه عابسًا وقال: لأصنعن لك رحىً يتحدث الناس بها، فأقبل عمر علىٰ من معه فقال: توعدني العبد، فلبث ليالي ثم اشتمل علىٰ خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه، فكمن في زاوية المسجد في الغلس حتىٰ إذا خرج «عمر» يوقظ الناس للصلاة فلما دنا منه وثب إليه فطعنه ثلاث طعنات(١).

وأخرج البخاري عن عمرو بن ميمون قال: «إني لقائمٌ ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفَّين قال: استووا حتىٰ إذا لم يرَ فيهم خللًا تقدّم فكبّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولىٰ حتىٰ يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر فسمعته يقول: قتلني -أو أكلني- الكلب حين طعنه، فطار العلج بسكينٍ ذات طرفين لا يمر علىٰ أحد يمينًا ولا شمالًا إلا طعنه، فلما رأىٰ رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه «للصلاة» فمن يلي عمر فقد رأىٰ الذي أرىٰ، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون

(١) «الطبقات» (٣/ ٣٤٥).

غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله، فصلىٰ بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة»[١]. إنّ رواية البخاري تذكر تفصيل ما حدث وأن الحادثة وقعت بعد أن بدأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصلاة.

هل هذه جريمة عادية؟

هل كانت فعلة هذا المجوسي لمجرد أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُلب طلبه بإنقاص ما فرضه عليه المغيرة بن شعبة؟ أم هي تدبير محكم من المجوس «إنّ رفض عمر تخفيض خراج أبي لؤلؤة ليس سببًا كافيًا لإثارة حقد هذا الغلام حتىٰ يقتل الخليفة، وإنما وراء هذه الحادثة حقدًا سياسيًّا من قبل الفرس»[٢].

ليس غريبًا أن يكون هذا الحقد السياسي المجوسي، ففي خلافة عمر كانت الفتوحات الكبرىٰ في بلاد فارس، كانت القادسية، وكانت «نهاوند» التي تُسمَّىٰ فتح الفتوح، وقضي علىٰ الإمبراطورية الفارسية قضاءً نهائيًا، وكان عمر قَفْلُ الفتنة كما

---

(١) انظر: يحىٰ بن ابراهيم اليحيىٰ «الخلافة الراشدة والدولة الأموية في فتح الباري» (٣٦١).

(٢) زاهية قدورة «الشعوبية» (٤٠).

يقول الإمام الذهبي، فلمَّا استشهد قام رءوس الشر علىٰ الشهيد عثمان وتفرقت الكلمة.

جاء في «صحيح مسلم» كتاب الفتن: «أنّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل حذيفة بن اليمان عن الفتن التي تموج موج البحر.

قال حذيفة: لا تخف يا أمير المؤمنين فإن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال: فيُكسَر الباب أو يُفتح؟ قال: بل يُكسر.

فقال عمر: إذن لا يغلق أبدًا، قلت: أجل، قلنا -جماعة من التابعين يسألون حذيفة-: فهل يعلم عمر من الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، قال: فهبنا نسأله من الباب فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: الباب عمر»[(١)].

هذه الشخصية العظيمة العبقرية كما وصفه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغاظ الفرس المجوس بالفتوحات التي وقعت في عهده، خليفة يحكم الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وهو الذي يُداوي إبل الصدقة بيده، يمشي في السوق

(١) «صحيح مسلم شرح النووي» (١٨/ ١٦).

وحده؛ هذا لم يعهده الناس أبدًا ولذلك كانت هذه المؤامرة.

وهل من الطبيعي أن يقول هذا المجوسي لعمر: لأصنعنّ لك رحًى تتحدث بها العرب ولماذا قتل نفسه علىٰ طريقة الذين قتلوا قاتل الرئيس الأمريكي «كندي» لإخفاء أسماء الذين خططوا لهذا الاغتيال؟!.

إنه من الغريب أن تذكر هذه الحادثة الكبيرة دون تحقيق أو تعليق من المؤرخين وغيرهم الذين ذكروها في كتبهم وكأنها حادثة عادية من عبد ادعّىٰ أنه ظُلم من سيده، هل هذا كله من قِبَل تحسين الظن وحتىٰ لا يتهم ناس أبرياء؟! مع أن رواية عبد الرحمن بن أبي بكر تؤيد أنها مؤامرة.

ومن الغريب أيضًا أن يورد صاحب «الاكتفا» و«الطبري» أنّ كعب الأحبار قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إعهد فإنك ميت في ثلاث، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في التوراة!!

إنه من الصعب جدًّا قبول دعوىٰ كعب الأحبار أن هذا الخبر موجود في التوراة، وفي رواية ابن سعد أن كعب الأحبار قال

لعمر: ألم أقل لك إنك لا تموت إلا شهيدًا «يشكك الشيخ علي الطنطاوي في كعب الأحبار ويعتبره متهمًا فرعيًّا في هذه القضية، ويشكك الشيخ رشيد رضا أيضًا بكعب الأحبار ورواياته وتوثيق البعض له».

ويرىٰ الشيخ الطنطاوي أنها جريمة سياسية لو جرىٰ فيها تحقيق قضائي لظهر أن في هذه الجريمة شركاء هم: الهرمزان وجُفينة ومتهمين آخرين، والدليل أن عبد الرحمن بن أبي بكر - وهو نزيه ليس له غرض- شاهد الهرمزان وجفينة يتناجيان هما وأبو لؤلؤة فلما رأوه سقط من بينهم خنجر له رأسان «ظهر أنه هو نفسه الذي قُتِل به عمر» وكان الثلاثة من أعداء الإسلام وخصوم العربية.

أما الهرمزان: فقد خسر ملكه وأضاع بلاده وعاش في المدينة فكان من الطبيعي أن يحنق علىٰ الإسلام أشد الحنق.

وأما أبو لؤلؤة: فكان خبيثًا يحمل في صدره أشد الضغن علىٰ العربية والإسلام، وكان إذا رأىٰ السبي الصغار مسح

رءوسهم وبكىٰ وقال: أكل عمر كبدي، كان ذلك قبل رفع شكواه إلىٰ عمر.

وكان جفينة نصرانيًّا يجتمع بهما ويشاركهما آراءهم(١).

ويقترح الشيخ الطنطاوي أن يأخذ هذه القضية رجال القضاء ويدرسوها ويقيموا من أنفسهم محكمة تعطي حكمها علىٰ هؤلاء المتهمين.

ويبقىٰ هنا سؤال: لماذا لم يمنع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هؤلاء الأعاجم من دخول المدينة، وقد كانت تلك رغبته وهو القادر علىٰ ذلك، وهو الخليفة، وقد قال لابن عباس: «قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة».

وفي رواية ابن سعد قال لابن عباس: «هذا من عمل أصحابك، كنت أريد ألا يدخلها علج من السبي فغلبتموني»(٢).

والجواب عن هذا: أن رغبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المنع كان

---

(١) «هامش تاريخ الإسلام» للذهبي وهو منقول من «سيرة عمر» لعلي وناجي الطنطاوي (٢/ ٦٠٧) (٩).

(٢) «طبقات» ابن سعد (٣/ ٣٥٢) (١٠).

اجتهادًا منه، وهو اجتهادٌ صحيح، ولكنها الخلافة الراشدة التي لا تمنع ولا تعطي إلا بأمر الله ومن خلال النصوص الشرعية، وهذه الخلافة لا تُدين النوايا وتتوخىٰ العدل المطلق، وفي مثل هذه الخلافة لا توجد الحراسة الشديدة والقصور والأبراج التي تحمي رئيس الدولة.

ولم يتعود العرب بفطرتهم علىٰ هذه الدسائس والمؤامرات الخفية.

رضي الله عن عمر فقد كان يتمنىٰ الشهادة في المدينه كما أخرج البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: «اللهم ارزقني شهادةً في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ».

وذكر ابن سعد أنّ عوف بن مالك رأىٰ رؤيا أن عمر شهيدٌ مستشهد، فلما قصها علىٰ عمر قال: «أنّىٰ لي بالشهادة وأنا بين ظهراني جزيرة العرب لست أغزو والناس حولي، ثم قال: بلىٰ يأتي بها الله إن شاء الله».

إنّ كلام شيخ الإسلام عن دسائس المجوس هو استقراء للتاريخ الإسلامي ومعرفة دقيقة بتفاصيله، وليس من قبيل الكلام

العاطفي أو الاستفزازي، وتصديق ذلك ما جرىٰ من هذه الفرق الباطنية وتعاونها مع المشركين الذين قادوا الحملات لاكتساح العالم الإسلامي، كالتتار والصليبيين، وتعاونهم في العصر الحديث مع أمريكا لاحتلال أفغانستان والعراق، وما قام به النصيريون في سورية من قتل وتدمير وتشريد لأهل السنة.

يقول ابن القيم: «وهل عاثت سيوف المشركين من عباد الأصنام من عسكر هولاكو وذريته إلا من تحت رءوسهم، وهل عطلت المساجد وحرقت المصاحف وقتل علماء المسلمين إلا بسببهم»(١).

ويكتب في العصر الحديث محمد كرد علي: «وفارس مورد بدع كثيرة في الإسلام منها: الزندقة ثم الباطنية، ومن الغريب أن شيعة جبل عاملة «جنوب لبنان» كانوا من حزب الصليبيين علىٰ المسلمين إلا قليلًا»(٢).

وليس المقصود طبعًا أن كل بلاد فارس علىٰ هذه الشاكلة في العصور الإسلامية الأولىٰ، فقد كانت خراسان والري

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧٢) (١١).
(٢) «غرائب الغرب» (٨٧) وانظر «خطط الشام» (٢/ ١٤) (١٢).

وأصفهان وتبريز وغيرها موئل العلماء الكبار من أهل السنة، وكانت مدنًا سنية، ولكن العِرق المجوسي لم يقتلع من بعض سكانها، وكان منهم المؤامرات المتكررة علىٰ الدولة العباسية والدولة العثمانية.

(٤)
الفتنة الكبرى
أو المواجهة الكبرى

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يُقطِّـعُ الليَّـل تسـبيحًا وقرآنـا

«حسان بن ثابت»

مدخل:

كان مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام

---

(١) هو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه: أروىٰ بنت كريز، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ، وهو أمير المؤمنين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو صاحب الهجرتين، ويلقب بذي النورين، أسلم قديمًا علىٰ يدي أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال أبو داود: «عثمان وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تركا الخمر في الجاهلية» وهاجر إلىٰ الحبشة ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ثم عاد وهاجر إلىٰ المدينة. له مناقب كثيرة ومنها قول الرسول ﷺ «من جهز جيش العسرة فله

(٣٥هـ) زلزالًا هز كيان المسلمين، ومن أعظم المصائب التي فجأتهم بحجمها وآثارها وعواقبها الوخيمة، وكان هذا أول وهن أصاب الأمة، وقد خلفت تلك الجريمة انشقاقات ما زال المسلمون يعانون منها حتىٰ اليوم.

بل هناك من يرىٰ أنَّ مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو أصل كل بلاء نزل بالمسلمين(١).

وحُقَّ للصحابي الجليل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أن يقول: «ولو أن أُحُدًا(٢) انقضَّ بما صنعتم لكان حقيقًا»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المصائب العظيمة، وقتل عثمان قبله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانا من أعظم أسباب

= الجنة فجهزه عثمان. استُخلف بعد عمر عام (٢٤هـ)، ومن أعظم أعماله جمع المسلمين علىٰ مصحف واحد، واستمرت الفتوحات في عهده: فتح خراسان، وشمال أفريقيا، وفي عهده غزا معاوية قبرص، وثبت في الحديث (أول جيش من أمتي يغزون البحر فقد أوجبوا، قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: «**أنت فيهم**».

(١) أحمد حسن الباقوري «بقايا ذكريات» (٥٠).

(٢) «جبل أحد».

(٣) الذهبي «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٣٦).

الفتن في هذ الأمة وقَتَلَتُهما من شرار الخلق عند الله(١).

كان العصر عصر خلافة راشدة علىٰ منهاج النبوة، عاش الناس في ظلها أمنًا وعدلًا ورحمة، فكانت الحادثة مؤلمة وكانت عاقبتها دماء وعقوباتٍ وتفرقًا وفتنًا.

وخطورة هذه الكائنة أنها جاءت من الداخل، لقد قتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن الذي قتله كان أعجميًا فارسيًّا غير مسلم(٢)، أما أن يقتل عثمان بأيدي المسلمين، وفي مدينة رسول الله ﷺ وفي شهر ذي الحجة، فهذه هي الرزية الكبرىٰ، وهي المواجهة بين كيد الأعداء ومن استجاب لهم من أهل الأهواء والمغفلين من المسلمين، وبين أهل الحق وما يجب أن يتفطنوا له ويحذروا مما يدبر لهم وللإسلام.

إن حدثًا كبيرًا مثل هذا الحدث لابد أن يدرس دراسة متأملة ومعمقة لمعرفة الأسباب التي أنتجت هذه الفتنة التي أربكت المسلمين يومها، وهناك جوانب قد تخفىٰ علىٰ بعض الناس، هناك رؤية مرتبكة، فلابد من توضيح هذه الحادثة وإزاحة

(١) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٣/ ٤١١).

(٢) تكلمنا في الحلقة السابقةعن مقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهل كان بمؤامرة خارجية.

الستار عن الشبهات التي تثار حولها[١].

بدايات الفتنة ونذرها:

في أواخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدأت نذر الفتنة والشغب تذر قرونها، بدأت ظاهريًّا وكأنها انتقادات لتصرفات ولاة الأقاليم «العراق، الشام، مصر» ثم تدرجت لانتقاد بعض تصرفات الخليفة أو بعض اجتهاداته، في قضايا إدارية أو فقهية كإتمام الصلاة في «منىٰ» أيام الحج، وهو اجتهاد منه[٢]، وتعيين بعض الولاة من أقاربه «من بني أمية» فقد ولىٰ علىٰ العراق عقبة بن أبي

---

(١) كنت قد ألقيت محاضرات في السيرة النبوية، وعندما انتهيت طلب مني الحضور الحديث عن فترة الخلافة الراشدة، وقد توقفت عندما وصل الحديث إلىٰ مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعلمي أن كثيرًا من الحضور لا يقدّرون الموقف والحدث بتعقيداته تقديرًا صحيحًا، وربما ظنوا بالصحابة ظنًا يأثم المسلم بسببه، واستمر هذا التهيب من الخوض في الحادثة وأقدم رجلًا وأؤخر أخرىٰ إلىٰ أن جاء الانفتاح الإعلامي الأخير وخاض الناس في كل موضوع بالحق والباطل وبعلم وبغير علم في هذا الموضوع وغيره فهذا مما دعاني للكتابة حول هذه الفتنة.

(٢) **يقول ابن خلدون حول اختلاف الصحابة:** «اعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عنه الاجتهاد في الأدلة الصحيحة، وهو خلاف اجتهاد ظني». «المقدمة» (٢/ ٦١٧).

معيط، ثم عزله وولىٰ سعيد بن العاص، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولىٰ عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخو عثمان لأمه، ومن التهم الموجهة له أنه أعطىٰ الأموال لأقاربه.

وقد فند رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه التهم وأبدىٰ رأيه فيها، فإعطاء المال لأقاربه هو من ماله الخاص، أو تصرف اجتهد فيه، وبعض هذه التصرفات اعتذر عنها واعتبرها أخطاء منه، وعلىٰ كل الأحوال فهي أمور لا تستحق هذه الضجة وهذه الحركة المفتعلة، ولا تستحق المطالبة بأن يعزل نفسه.

هذا هو ظاهر المسألة، وهو شيء غريب؛ لأن الحقيقة هي غير ذلك، وهناك شيء غير ظاهر، هناك أمر يدبر بليل، يدبر للفتنة والانقلاب ليس علىٰ الخليفة، بل علىٰ الخلافة، وعلىٰ استقرار أمر المسلمين وعلىٰ فتوحاتهم وانتشار الإسلام شرقًا وغربًا.

إن الذي تولىٰ كبر هذه الفتنة شرذمة من الهمج الأراذل ومن أوباش القبائل كما وصفهم الإمام الجويني، وقد تأثر كثير منهم بدعاية اليهودي عبد الله بن سبأ[1] الذي ادعىٰ الإسلام زمن

(١) ينكر بعض الشيعة المعاصرين شخصية عبد الله بن سبأ وكذلك بعض المستشرقين والكتاب من أمثال طه حسين، بينما يرد اسمه عند الشيعة

عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وراح يجوب المناطق والمدن مؤلبًا علىٰ عثمان، مظهرًا للأمر بالمعروف، داعيًا لعلي بن أبي طالب بحجة أنه هو الوصي، وقد أوصىٰ له النبي ﷺ وهو أول من قال بذلك وهذا افتراء مقصود لضرب الإسلام من الداخل؛ ولذلك كانت الخطوة التالية هي البراءة من أعداء علي وهم الصحابة حسب زعمه؛ لأنهم لم ينفذوا وصية رسول الله ﷺ واغتصبوا الخلافة وحكم بكفرهم فهذا هدم مقصود للإسلام وتابعه علىٰ ذلك الرافضة.

ثم انتقل إلىٰ موضوع الرجعة وأن عليًا سيرجع إلىٰ الدنيا بعد موته، وكذلك محمدًا ﷺ سيرجع كما سيرجع عيسىٰ عليه السلام، ويستشهد بالآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

= المتقدمين -الكشي في كتاب «الرجال»- في خمس روايات ويرد عند سعد القمي في «المقالات والفِرَق»، وعند النوبختي في كتابه «فِرَق الشيعة»، وعند الطوسي في كتابه «رجال الطوسي»، وفي «نهج البلاغة» شرح ابن أبي الحديد المعتزلي الشيعي، ويرد عند علماء أهل السنة: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣) رواية، وابن تيمية في «منهاج السنة».

انظر: خالد الغيث: «استشهاد عثمان» (٧٠)، وسليمان العودة «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة»، وسعدي الهاشمي «ابن سبأ حقيقة لا خيال».

وقد قال هو وأتباعه «السبئية» بألوهية علي، وقد ثبت أن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حرقهم في النار ونفىٰ ابن سبأ إلىٰ المدائن، وفي المدائن استطاع هذا الأفاك أن يبث دعوته ولما سمع بمقتل علي قال: «لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرة لعلمنا أنه لم يمت ولا يموت حتىٰ يملك الأرض».

وراجت بضاعته علىٰ هؤلاء، وخدعهم عن أنفسهم، ومكر بهم، والدليل علىٰ أن هناك مؤامرة خارجية سبئية، ما قاله أحد المشاغبين علىٰ عثمان وهو الأشتر النخعي عندما سمع رد عثمان علىٰ اعتراضاتهم وأنه لم يكتب كتابًا إلىٰ والي مصر كما يزعمون، قال الأشتر: «لعله مُكر به وبكم».

إذن هناك من يؤجج الفتنة ويكتب رسائل علىٰ لسان عثمان وعلىٰ لسان عائشة، وكلها كذب وتزوير.

ولا بأس أن نذكر هنا رواية قدوم وفد مصر ولقائه بعثمان لنرىٰ ما يحاك في الخفاء، وهذه الرواية هي رواية أبي سعيد مولىٰ أبي أسيد الساعدي الأنصاري وقد شاهد الحادثة بنفسه.

قال: «سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا عليه، وكان

في قرية له خارجة عن المدينة، فلما سمعوا به أقبلوا إلىٰ المكان الذي هو فيه، فقالوا له: ادع بالمصحف.

فدعا بالمصحف، قالوا: افتح السابعة «سورة يونس» فقرأها حتىٰ أتىٰ علىٰ هذه الآية ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩] فقالوا: قف، أرأيت ما حميت من الحمىٰ «أي منع الرعاة أن يرعوا في الحمىٰ الذي حماه» آلله أذن لك؟[1] فقال: إن عمر حمىٰ الحمىٰ قبلي لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمىٰ، وجعلوا يجادلونه في الآيات ويقول لهم: نزلت في كذا وكذا ثم أخذوه بأشياء وعرفها فقال: أستغفر الله وأتوب إليه، ثم قال لهم: ما تريدون، قالوا نأخذ ميثاقك «أي: العهد وخاصة في مسألة توزيع المال» وأخذ عليهم ألا يشقوا عصًا ولا يفارقوا جماعة، ثم أقبلوا معه إلىٰ المدينة راضين، ورجعوا إلىٰ بلدهم، فبينما هم في الطريق إذا هم براكب

(١) هذا يدل علىٰ جهلهم وأنهم سماعون للكذب لا يدرون إلا أن يرددوا ما يقال لهم، لأن قضية الحمىٰ معروفة أنها لإبل الصدقة وليست لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصة..

يتعرض لهم ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم، قالوا مالك، إن لك لأمرًا، ما شأنك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلىٰ عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بكتاب علىٰ لسان عثمان وعليه خاتمه يأمر عامله بمصر أن يصلبهم أو يقتلهم «للوفد» فرجعوا إلىٰ المدينة، وجاءوا إلىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالوا: قم معنا إلىٰ عثمان، قال والله لا أقوم معكم، فقالوا لم كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتابًا قط، فنظر بعضهم إلىٰ بعض، فانطلقوا إلىٰ عثمان، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما كتبت ولا أمللت، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب علىٰ لسان الرجل، وقد ينقش الخاتم علىٰ الخاتم[(١)]» ولو أن هذا المرسل إلىٰ مصر في مهمة سرية خطيرة وهي قتل الوفد، فلماذا يتعرض للوفد في الطريق؟!

وجاء في رواية أخرىٰ: «أن مسروقًا قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هذا عملك، كتبت إلىٰ الناس أي: تحرضين علىٰ عثمان؟. فقالت: لا والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتىٰ جلست مجلسي هذا»[(٢)].

---

(١) هذا يدل علىٰ أن الرسالة مزورة والخاتم مزور.

(٢) قال ابن كثير عن هذه الرواية وهو صحيح الإسناد «البداية والنهاية» (٧/ ١٩٥)

وفي رواية قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان القوم يختلفون إليَّ في عيب عثمان ولا أرىٰ إلا أنها معاتبة، وأما دمه فأعوذ بالله منه». فالمؤامرة واسعة، تكتب الرسائل باسم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وباسم عائشة.

وأما قصة الرجعة التي اخترعها ابن سبأ سواء رجعة محمد ﷺ كما يزعم هذا الأفاق، أو رجعة علي لقتل أعدائه؟! هذه القصة استمرت في التراث العقدي الشيعي، ففي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قال الفضل بن الحسن الطبرسي: «واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية علىٰ جواز الرجعة»(١).

ومع التأكيد علىٰ حقيقة ابن سبأ وأثره في الفتنة ولا نستبعد تأثير العقائد المزدكية الفارسية وبدايات الشعوبية التي تحتقر العرب ولا ترىٰ فضلًا لقريش ولا للعرب، مع التأكيد علىٰ هذه العوامل الخارجية إلا أننا نعتقد أن الأسباب الداخلية هي الأولىٰ بالبحث والدراسة؛ لأن العوامل الخارجية لا تستطيع التأثير وإدراك ما تريد إذا كان الصف الداخلي قويًّا متماسكًا واعيًا

= وانظر أيضًا: يوسف العش: الدولة الأموية.

(١) خالد الغيث «استشهاد عثمان» (٨٤).

للأخطار ومكائد الأعداء.

وفي تاريخنا وواقعنا اليوم نلاحظ تعاور تلك الأسباب الداخلية والخارجية والنتيجة هي إضعاف الصف الإسلامي.

مجمل أسباب الفتنة:

إن إرجاع نتائج الحوادث، وخاصة الكبار منها إلىٰ سبب واحد غير مقبول وغير كاف في التعليل، وأما الذي يريد الأمور السهلة فهو يميل إلىٰ التفسير الأحادي أو إلقاء التبعة علىٰ الآخرين، وهذا كله مما يبعد الباحث أو المؤرخ عن الحقيقة، ومن الواضح أيضًا أنه كلما عظم الحادث كانت أسبابه أشد تعقيدًا.

١- بعد الفتوحات الكبرىٰ في عهد أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا انساح العرب ونزلوا الأمصار «الكوفة، البصرة، الفسطاط» واستقروا في بلاد الشام والعراق ومصر وخراسان.

ومن هؤلاء فئة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ولا هذبتهم سيرته وآدابه، ولا عاشوا مع الصحابة ولا تربوا علىٰ أيديهم، هذا مع ما كان منهم في الجاهلية من جفاء وعصبية، وبعضهم من الأعراب الذين ارتدوا ثم رجعوا

إلىٰ الإسلام بسيوف المهاجرين والأنصار، وقد رأوا بأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمتهم لفارس والروم، فأنفت نفوسهم أن تكون الرئاسة لقريش فحقدوا عليها، وبطروا معيشتهم بعد تدفق الغنائم وكثرة الخيرات والأموال، واطمأنوا وتفرغوا للنقد والنقمة علىٰ خليفة المسلمين، ولم يسترشدوا بالأحاديث التي تأمر بطاعة الحاكم المسلم في المعروف الذي يقيم شرع الله، ولو كانت له هنات وأخطاء؛ فكيف إذا كان من الخلفاء الراشدين، ومن العشرة المبشرين؟!

وقد أطمعهم لين جانب الخليفة وكرم أخلاقه، فلم يشكروا هذه النعمة ويحمدوا الله عليها، بعد أن كانوا قبل الإسلام رعاة إبل يأكلون عند المجاعة «العلهز»[١] وأبت عليهم نفوسهم المتكبرة إلا أن يتطاولوا علىٰ مكانة الصحابة، فعجوا عجيج «العتدان»[٢]، كما وصفهم

---

(١) الدم المخلوط بوبر الإبل.

(٢) العَتِدان: جمع عَتود، وهو الجدي الصغير الذي استكرش، يظن أنه أصبح تيسًا كبيرًا.

الصحابي حذيفة بن اليمان، وسيتمنون أن يرجعوا إلىٰ ما هم فيه، فلا يرده الله عليهم[١].

ربما يوجد في مجموع هؤلاء المتألبين قلة غُرِّر بهم وظنوا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وذلك لكثرة ما سمعوا من النقد لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكر أخطاء يرون أنه ارتكبها، فيظن الواحد منهم أن مصلحة الدين تقتضي عزل عثمان أو قتله! وهم صنف من الناس ضعيفي العقل، ضعيفي التزود من فقه الكتاب والسنة، فيهم نزق لا يهدأ لهم بال حتىٰ ينفذوا ما توسوس لهم أنفسهم[٢].

---

(١) من أسماء الذين شاركوا في الإثم والفعلة الشنيعة، نعرف أنهم من القبائل العربية التي استقرت في المدن الإسلامية التي نشأت حديثًا (البصرة، الكوفة، الفسطاط) فمنهم من الفسطاط: الغافقي بن حرب العكي، عبد الرحمن بن عديس البلوي، كنانة بن بشر التُّجِيبي، سودان بين حمران السَّكوني، وفي الكوفة: عمرو بن الأصم، زيد بن صوحان، الأشتر النخعي، ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدي، حُكيم بن جبلة العبدي.

(٢) كما يغرر ببعض الشباب المسلم في هذه الأيام فيقتلون الدعاة والعلماء بحجة المخالفة لهم في آرائهم، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا، كما فعلوا في الجزائر حين قتلوا الشيخين: محمد سعيد وعبد الرزاق رجام رحمهما الله، وكما فعل المتنطعون الغلاة ببعض رجال الثورة السورية المعاصرة وقادتها.

لماذا يضطر مثل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنْ يذكر ما قدمه من تضحيات للإسلام وأهله؟ ولماذا يضطر لأن يذكر الناس بصحبته الطويلة للرسول ﷺ؟ لأن هذا الصنف من الناس الذين يخاطبهم عثمان لم يؤسسوا ولم يتعبوا في بناء الدولة، وعاشوا في نعمة لم يشكروها، هؤلاء لا يقدرون الجيل المؤسس، الجيل الفريد في تاريخ البشرية.

قال عباد بن زهر: سمعت عثمان يخطب فقال: «إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلموني به، عسىٰ ألا يكون أحدهم رآه قط»(١).

ما الذي ألجأ عثمان كي يدافع عن نفسه ويذكرهم بصحبته، وقد وردت روايات أخرىٰ أنه ذكرهم بأعماله العظيمة، «تجهيز جيش العسرة، شراء بئر رومة» وجعله سبيلًا للمسلمين ويقول لهم: «أتعلموننا ديننا وأنتم لم تروا رسول الله ﷺ قط».

(١) «مسند الإمام» أحمد (١/ ٥٣٢).

وقد عانىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد عثمان الشيء نفسه عندما استقر في الكوفة ووجد نفسه وسط رجال لا يعرفون قدره، وكان ذلك من أسباب ضعف مركزه، هذا وهم «أهل الكوفة» يدَّعون حب علي، فكيف يقدرون عثمان؟

٢- كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لين العريكة، حييًّا، ولكنه لم يكن ضعيفًا كما يصوره بعض كتاب التاريخ، والحياء ليس عيبًا بل ميزة، كما جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «**الحياء من الإيمان**» وهذا اللين هو الذي أطمع الذين في قلوبهم مرض فتطاولوا عليه، وسعوا لإثارة النفوس.

يقول ابن تيمية عنه: «فسار وبنىٰ علىٰ أمر قد استقر قبله بسكينة وحلم وكرم ولين، ولكن لم تكن فيه قوة عمر ولا سياسته التي بهرت العقول، فطمع فيه الناس بعض الطمع وتوسعوا في الدنيا، ودخل بسبب توليته أقاربه الداخل، وأُنكرت منهم -الولاة- أمور ما اعتادوها الناس قبله، فاستحكم الشر حتىٰ قُتل مظلومًا»(١).

(١) «المنتقىٰ من منهاج الاعتدال» (٤٨٣).

اجتهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تولية أقاربه، ولعله ظن أن ذلك مما يساعده في تدبير أمور الدولة، ولكن سياسة عمر وأبي بكر في عدم تولية الأقارب هي الأفضل من الناحية السياسية إبعادًا للشبهة ولقالة الناس. وقد استجاب لطلب أهل الكوفة بعزل سعيد بن العاص.

ويعلق الشيخ رشيد رضا: «كان عثمان علىٰ عدله وفضله، شديد الحياء، لين العريكة، فغلبه قومه علىٰ وصية عمر السياسي الحكيم. بألا يحمل أبناء أبي معيط «بنو أمية» علىٰ رقاب الناس، فنجمت رءوس الفتنة في عهده، وكان كارهًا لها، إلا أنه لم يستطع كبح جماحها»(١).

٣- كان عصر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عصر تحولات كبرىٰ، فالدولة تحولت إلىٰ دولة عالمية، وعندما وصل الأمر إلىٰ عثمان وجد نفسه في الأوقات الحرجة التي يقال لها: أدوار انتقال، وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعامل الناس ويخاطب الناس بطريقة الخلافة الراشدة، خلافة ليس لديها حرس وجيش يحمي الخليفة، فالأمن والعدل والرحمة كانت هي

(١) «مجلة المنار» م (٣٥/ ٧).

السياج زمن أبي بكر وعمر، والأحوال زمن عثمان تغيرت وكان لابد من وضع أسس للنظام السياسي الإسلامي، كانت خلافة عثمان وخلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صراعًا بين الخلافة والملك، كان باستطاعة عثمان الإتيان بجيش يدفع عنه هؤلاء المشاغبين، ولكنه جادلهم بالحسنىٰ، كان باستطاعة عثمان أن يفرق بيت المال علىٰ هؤلاء فيسكتون، وكان بإمكانه الذهاب إلىٰ مكة، ولكنه يفضل ألا يغادر مدينة رسول الله ﷺ.

إن قطف الثمرات قد تكون أصعب من التأسيس، ومن الاندفاع الذي وقع في عهد الشيخين أبي بكر وعمر.

فهذه التحولات الكبرىٰ تحتاج إلىٰ اجتهادات كبرىٰ لترسيخ مؤسسات الخلافة التي بدأها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه الأجيال الجديدة وهذا التيار المتدفق من الأمم التي دخلت في دين الله، وهذا المال الذي أصاب تغيرًا في المجتمع واضطرابًا في الطبائع[1] كل هذا يحتاج إلىٰ

(١) **يقول (جوستاف لوبون)**: «إن في جميع النفوس استعدادًا لتوليد أخلاق جديدة تظهر إذا تغيرت البيئة تغيرًا فجائيًّا».

وقفة طويلة للترتيب والتنظيم، ولكن مكر اليهود والمجوس وجهل الأعراب لم يتيحا الفرصة لمثل هذا العمل.

٤- لا شك أن لابن سبأ دورًا كبيرًا في تأليب المشاغبين، ويبدو أنه كان يثير الفتن بطرق ملتوية، وربما ظهر بعدة أسماء فهناك روايات متعددة تذكر أنه رجل أسود في وفد مصر، ومرة تذكر أن اسمه جبلة، وهذا يدل علىٰ تنكره بأسماء مختلفة وهو مشهور بـ«ابن السوداء» وهناك رواية تدل علىٰ أنه من الذين اشتركوا في قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والذين ينكرون أن يكون لابن سبأ واليهود دور في هذه الفتنة، فماذا يقولون عن تحريش اليهود بين الأوس والخزرج لإعادة أيام الجاهلية وإعادة القتال فيما بينهم لولا أن هدأهم الرسول ﷺ وقال لهم: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم**».

= **يقول «أريك فروم»**: «عندما يتغير في المجتمع أي جانب مهم، فإن مثل هذا التغير يحتمل أن يؤدي إلىٰ اضطراب في الطبائع الاجتماعية للناس».

وماذا يقولون في محاولة بني النضير اغتيال الرسول ﷺ؟! ثم اليهودية التي وضعت السم للرسول ﷺ في غزوة خيبر، وتعاون اليهود والمنافقين ونقضهم للعهود في غزوة الخندق، والمؤامرات مستمرة إلىٰ يومنا هذا.

وقد نهىٰ الله ﷻ المسلمين في المدينة أن يقعوا في مصافاة هؤلاء القوم أو الثقة بهم؛ لأن اليهود كانوا يُظهرون المودة لبعض المسلمين ويخفون أشد العداوة، وكان بعض المسلمين ينخدعون بهذه المودة الظاهرة.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

[آل عمران: ١١٨، ١١٩].

وهناك قاعدة في التثبت من الروايات والأحداث وهي: «أن نأخذ من الماضي أسبابًا وعللًا وحوادث ذات خطر، فإن استقامت أن تمتد إلىٰ الحاضر، فهي حقيقة أن تكون شيئًا من التاريخ يوشك أن يكون حقًا كله أو بعضه»(١).

فإذا طبقنا هذه القاعدة التي ذكرها الشيخ شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن مؤامرات اليهود وحقدهم مستمر حتىٰ الآن، فما المانع أن يكون عبد الله بن سبأ حقيقة لا خيال؟

٥- ربما كان من أفكار بعض هذه الأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام من يعيب التفضيل المشروع الذي ينزل الناس منازلهم، مثل كون الأئمة من قريش، متأثرين بما كان في مجتمعاتهم من أفكار كالمزدكية التي تنادي بشيوعية المال والنساء، أو أنهم دخلوا في الإسلام نفاقًا لترويج هذه العقيدة.

٦- اجتهد سيدنا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بألا يدافع عنه أحد، بل طلب

(١) محمود محمد شاكر «جمهرة المقالات» (١/ ٥٢٥).

وأمر الذين عنده من أبناء الصحابة كالحسين وابن الزبير والذين يريدون الدفاع عنه، أمرهم أن يغادروا منزله، ورأىٰ الاستسلام والإذعان لهذا المصير؛ لأنه لا يريد أن يراق دم مسلم بسببه، وهو مصمم علىٰ هذا الرأي ولا يريد أي قتال[1]، خاصة وقد رأىٰ الرسول ﷺ في المنام فقال: «يا عثمان أفطر عندنا» فأصبح صائمًا وقتل من يومه وذلك بعد حصار أربعين يومًا تجرءوا ودخلوا داره وقتلوه -قتلهم الله- منهم سودان بن حمران السكوني وكنانة بن بشر التجيبي وعمرو بن الحمق.

وقد يصل الإنسان في مثل هذه الحالة، وفي مثل شخصية وتكوين عثمان إلىٰ مثل هذا الاجتهاد، وهو ينظر إلىٰ حجم هذه المؤامرة، وانخداع هؤلاء القتلة بأقوال عبد الله بن سبأ.

وقد لاحظت من خلال قراءتي لمذكرات السلطان عبد

(١) يرىٰ الأستاذ محب الدين الخطيب أنه لو ظهرت في الميدان قوة ذات هيبة تقف في وجوه البغاة لارتاح عثمان رضي الله عنه.

الحميد أنه وصل إلىٰ شيء شبيه بهذا، فقد فوجئ بحجم المؤامرة عليه من الداخل والخارج، فكان شيئًا مؤلمًا يبعث علىٰ الإحباط فاستسلم للانقلاب ونُفي إلىٰ مكان في «سلانيك»، زيادة في الكيد، وكان باستطاعته رد الانقلابيين بالحرس الذي كان معه أو الاستعانة بفرقة من فرق الجيش «ليست هذه مقارنة بين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والسلطان عبد الحميد ولكنها تشابه الأحداث».

٧- لا يستبعد المؤامرات والدسائس الخارجية من فارس والروم، خاصة بعد استشهاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومحاولة بعض المناطق نقض الصلح والرجوع إلىٰ سابق عهدهم، ولكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استطاع إعادة الأمور إلىٰ نصابها، فكان هذا سببًا في إذكاء هذه الفتنة، وقد حدث ما يشبه هذا بعد ارتداد العرب في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي حديث عروة بن الزبير: «ارتدت العرب، ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارىٰ».

﴿ الدروس ﴾

١- لم يدخل في هذه الفتنة صحابي أبدًا، وما كان من معارضة أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واجتهاده في قضية المال واكتنازه، وأن ما زاد عن الحاجة فهو كنز، هذا الاجتهاد لم يوافقه عليه بقية الصحابة، ولذلك استأذن من عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخروج من المدينة، فأذن له وعاش في منطقة اسمها «الربذة»، ولم يكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن يؤلب علىٰ خليفة المسلمين، وكذلك ما صدر عن عمرو بن العاص وعمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من معارضة، فقد كان من قبيل إبداء الرأي في تصرفات معينة قام بها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأثناء حصار المشاغبين لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان كثير من الصحابة في مكة لأداء مناسك الحج، وبعضهم كان خارج المدينة، وقد أرسل كبار الصحابة

كعلي والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أولادهم لحماية الخليفة.

إن غاية ما يقال هنا: لماذا لم يتصد الصحابة للثائرين ويدافعوا عن الخليفة ولو خالفوه في الرأي الذي ارتآه من عدم المدافعة كما تمنىٰ ذلك الإمام الذهبي(١)، أو لماذا فتروا عن الحسم في هذه المشكلة الخطيرة؟ من المؤكد أنهم ظنوا أن الأمر لا يبلغ إلىٰ قتله؟

فالمجتمع الإسلامي يومها مجتمع مبني علىٰ الإخاء والمحبة وعلىٰ طهارة القلب، ولم يألف هذه المكائد والدسائس التي تتقنها المجتمعات الأخرىٰ.

والغريب أن أحد الثائرين كان يصلي بالناس وعثمان محاصر في منزله، وبعض الناس كره هذا وسألوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال لهم «صلوا».

وإن عدم التنبه لمثل هذه الدسائس ونتائج مثل هذا الشغب ستكون عقوبته شديدة؛ لأنه كلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة أشد حتىٰ يتطهر ويصفىٰ،

(١) «**تاريخ الإسلام**» (١/ ٢٦١) **يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولعمري لو قام بعضهم فحثا في وجوه أولئك التراب لانصرفوا خاسئين».

ومنزلة الصحابة منزلة رفيعة.

كما أن هناك جزءًا من المجتمع الإسلامي في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبسبب حداثة إسلامه لم يتعمق في فقه القرآن وما حدثهم عن دسائس اليهود وأساليب المنافقين، ونشأ جيل جديد سليم الصدر لا يعلم تفاصيل المجرمين، وكأن المسلمين بحاجة دائمًا إلىٰ مثل فقه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «ينقض الإسلامَ عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية».

وهو الذي قال لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين علم أن الذي طعنه في المسجد هو أبو لؤلؤة المجوسي: «هذا عمل أصحابك كنت أريد ألا يدخلها –المدينة– علج من السبي فغلبتموني»(١).

وبتعقيد هذه القضية، واجتهاد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدم الدفاع عنه وجد الصحابة أنفسهم في مأزق حقيقي، كيف يقتل الخليفة ولم يستشعروا الخطر قبل وقوعه، هنا اضطرب الأمر علىٰ طلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

(١) ابن سعد «الطبقات الكبرىٰ» (٣/ ٣٥٢).

ورأوا أن الواجب عليهم محاربة قتلة عثمان، ورأىٰ علي بعد اختياره خليفة بعد عثمان أن يؤجل موضوع محاكمة القَتَلة حتىٰ يستقر له الأمر، وكان يدعو: «اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل».

وبخروج الزبير وطلحة والسيدة عائشة أم المؤمنين إلىٰ البصرة «ربما لجمع الجموع لمحاربة قتلة عثمان» بهذا الخروج اضطرب أمر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، هل يتركهم، وسيرجعون إليه بعدئذ لأنه هو الخليفة المنتخب، أم يذهب إليهم، واختار الحل الثاني رغم نصيحة الصحابي عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له بعدم الخروج من المدينة ونصيحة ابنه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كذلك، وهكذا لم يستقر الأمر لعلي أيضًا وكانت فتنة كبيرة رأىٰ عواقبها الزبير واستشهد بالآية الكريمة ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

إنها أحداث مضت ولكن استشعار الأخطار قبل وقوعها هو الذي يجب أن يكون نصب أعين المؤمنين والعلماء

منهم خاصة وإن قراءة التاريخ تساعدهم علىٰ توقعات المستقبل.

هذا هو موقف الصحابة في الروايات الصحيحة، وكل كلام غير هذا فهو مردود، والإخباريون في كتب التاريخ يجمعون بين الغث والسمين، وهم حاطبو ليل، خاصة وأن بعضهم فيه تشيع ويحمل الضغينة علىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلىٰ بني أمية.

وعلىٰ المسلم التنبه لهذا، ولا يخوض فيما لا يعلم ولا يخوض في الحديث عن خير الأجيال، والحق له صُوًىٰ وعلامات لمن ابتغاه، كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وتلقَّ الحق إذا سمعته فإن علىٰ الحق نورًا».

وإن من الفقه في الدين معرفة الحق والسداد عندما تأتي الفتن، كما هو واقع في أيامنا هذه من فتن الباطنية الذين يخدعون الناس بالكلام المزخرف عن تصديهم للشيطان الأكبر «أمريكا» وهم في السر والعلن يعقدون الصفقات معها علىٰ حساب المنطقة العربية.

٢- قلنا في البداية: إننا لا نستطيع نفي المؤثرات الخارجية

وإن كان الكلام عن الحدث يجب أن يصب في تأثير الخلل الداخلي.

والسؤال الذي يبرز هنا: كيف استطاع رجل يهودي ادعىٰ الإسلام أن يسعىٰ في الإفساد في الأرض هذا السعي؟!

هل اخترق الصف الإسلامي كما يقال اليوم؟!

كيف لم يتنبه المسلمون إلىٰ خطورة ما يبثه هذا الرجل من أراجيف؟!

كيف يسمح له بالسير إلىٰ الكوفة فالبصرة يتحدث عن أخطاء عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويشيعها بين الناس، ويطرد من الشام فيذهب إلىٰ مصر ويستطيع التأثير في بعض ضعاف العقول؟!

ونحن لا نضخم من دور عبد الله بن سبأ، ومهما قيل فيه فإن الخطورة باقية، وهي الاستعداد عند بعض المسلمين لسماع الأراجيف وتصديقها لضعف في الدين أو قلة في التربية علىٰ الحذر من الأعداء، وعلىٰ

معرفة خفايا المجرمين.

وقد قال تعالىٰ ممتنًّا علىٰ المسلمين في غزوة تبوك حين ثبط المنافقين عن الخروج مع المسلمين لأن فيهم من يستمع إلىٰ أقوالهم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وإذا كان المجتمع الإسلامي يومها لم يألف هذه المكائد ووقعت هذه الفتنة الكبيرة، فما بال المسلمين في كل عصر وهم يرون أن كثيرًا من زعماء الفرق المنحرفة مغموص عليهم في الدين، لماذا لا يتساءلون مَن هؤلاء؟!

ولماذا يدعون هذه الأفكار الضالة تتفشىٰ في جسم المجتمع الإسلامي، كان بشر المريسي من رءوس المبتدعة زمن المأمون العباسي.

قال المروزي: «سمعت الإمام أحمد وذكر المريسي فقال: كان أبوه يهوديًا، أي شيء يكون؟!»[(١)].

إن طيبة قلوب المسلمين تجعلهم يثقون الثقة المطلقة بكل من يسلم، ويقدمون له كل شيء من باب

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٩٩).

التشجيع، وهذا شيء طيب وصحيح، ولكن ما المانع أن يكون ذلك مع الحذر والسؤال عن أصله وفصله، وحتىٰ يظهر لنا استقامته.

إن المسلمين والعرب خاصة إذا ابتعدوا عن الحذر «العمري» فإنهم لا يتقون فتن السياسة والرياسة.

وقد قرأت للشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا ينتقد فيه من يوثق «كعب الأحبار».

والحقيقة أن ما يروىٰ عن كعب الأحبار يؤيد شكوك الشيخ رشيد، ففي رواية عند ابن سعد أن كعب الأحبار رأىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «ألم أقل إنك لا تموت إلا شهيدًا، وأنك تقول من أين لي الشهادة وأني في جزيرة العرب».

وعن ابن وهب قال: أخبرني مالك أن كعب الأحبار كان يقول عند بنيان عثمان المسجد: لوددت أن هذا المسجد لا ينجز، فإنه إذا فرغ من بنيانه قتل عثمان».

من أين **لكعب الأحبار** هذا العلم أن عمر سيموت شهيدًا أي يقتل ولا يتوفىٰ وفاة عادية، وأن عثمان

سيقتل؟ كيف تُروىٰ هذه الروايات عنه، لماذا لا يُشك في مروياته كما فعل الشيخ رشيد رضا.

إن سلسلة أمثال ابن سبأ والمريسي لا تنتهي وستطول في التاريخ الإسلامي، فالجوهرة الثمينة «الإسلام» لابد أن يحوم حولها اللصوص المتوحشون.

وقد سئل أحد ملوك العبيديين «الفاطميين» عن نسبه، فنثر الدنانير وقال: هذا نسبي، ومن لم يرض فهذا حسبي وأشار إلىٰ السيف، ولم يتفوه بهذا الكلام إلا لأنه متهم في نسبه ولا يتجرأ علىٰ قول الحقيقة.

ألم ينخدع بعض المسلمين بـ«أتاتورك» مع أن أصوله من «سالونيك» التي عشش فيها يهود «الدونمة» وساعدوه علىٰ الوصول إلىٰ ما وصل إليه من الرئاسة، ومن ثَمَّ إلغاء الخلافة ومحاربة الإسلام.

لماذا لم ينتبه المسلمون إلىٰ خطورة الجمعيات السرية التي سعت للانقلاب علىٰ السلطان عبد الحميد ورفعت شعارات الدستور والبرلمان والحرية ولكن الهدف كان إسقاط الخلافة، والذي تولىٰ كِبْرَ هذا

الانقلاب جمعية الاتحاد والترقي التي لم يكن من قادتها إلا كل متهم في نسبه وفي دينه، فكان «جاويد» من الطائفة اليهودية المعروفة بـ«الدونمة» وطلعت باشا بلغاريًّا من أصل غجري اعتنق الإسلام، ونشأت جمعية العربية الفتاة التي أسسها نخبة من لبنان «فارس نمر، إبراهيم اليازجي، يعقوب صروف» مقلدة جمعية الاتحاد والترقي التركية، وظهرت العصبيات القومية «أتراك-عرب» بتحريض من الخارج وتصديق الناس لهذه الأحزاب التي كان غرضها هدم الخلافة التي كانت سياجًا للمسلمين علىٰ ما فيها من علل وأخطاء.

أليس من الخطأ الزيادة في التسامح، ويستغل ذلك الزنادقة حين ينتمون إلىٰ الإسلام لحفظ دمائهم ورئاستهم.

وإن من أعظم العيوب التي ابتلي بها المسلمون عدم إساءتهم الظن بأعدائهم حتىٰ كان ما كان وسيكون مثله كثير.

أليست هذه الغفلة هي التي تلقىٰ المسلمون فيها اليوم

درسًا قاسيًا في المغرب والجزائر وفلسطين ومصر؟!

ألم يقم المسلمون بواجب الدفاع وإخراج العدو الذي دخل بثياب تاجر ومبشر ثم جندي مستعمر ومخرب للأوطان ثم كان ما يسمىٰ «الانتداب» وتهيئة النخبة التي ستدير البلاد بعد رحيله، كل هذا وقع والشعب المسلم الطيب لا يستطيع عمل شيء بعد أن أحكمت القبضة عليه وذهبت الفرصة من يديه؟!

أليس هذا عقابًا أليمًا للغفلة التي استطاع أن ينفذ من خلالها حفنة من العسكر، وتسرق جهود شباب قاوم الإنكليز حول ضفاف القناة؟!

٣- إن أعظم الدروس التي يجب أن نتعلمها ونؤكد عليها هي أن الإصلاح من الداخل هو الأفضل والأسلم، وأن الثورات علىٰ الحكم الشرعي لا تأتي بخير أبدًا.

فالحاكم إذا كانت حسناته تربو علىٰ سيئاته ويقيم العدل ويحمي حمىٰ المسلمين، فمن الحمق وقلة البصيرة بالدين القيام عليه وتكون العاقبة ذهاب الأرواح والأموال والأوقات في حركات فاشلة، كما

وقع لكثير من هذه الحركات في التاريخ الإسلامي، والإصلاح من الداخل يكون بإيجاد الأجهزة التي تسمع النقد وتصغي إلىٰ المطالب العادلة.

فكما أن علماء المسلمين تداركوا المستجدات الواقعة بالاجتهاد، وظهرت المدارس الفقهية، كما تداركوا ما وقع من الدس والتحريف علىٰ أقوال الرسول ﷺ عندما أقاموا علم الجرح والتعديل، فكان الواجب أن يكون هناك اجتهاد وتطوير لأسلوب الحكم.

وقد أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ما يقع من تطورات في المجتمع الإسلامي، رغم أن الأمور لم تتعقد كثيرًا في خلافته وخلافة أبي بكر رضي الله عنهما، وكان المجتمع فيه سلامة الصدر وبساطة الحياة، ولكن طرأ الكثير من الجديد علىٰ المجتمع زمن عثمان رضي الله عنه وما بعده، فكان ذلك مدعاة لبذل جهد فكري لتأصيل العمل السياسي.

هل كان من الضروري أن تنتقل السلطة بالدماء والثورات ويتحكم بالمسلمين أصحاب النزق العاطفي والعقلية

الانقلابية، هؤلاء الذين لا يملكون الكفاية من العلم لإصلاح الأمور، ويأخذون الطريق علىٰ الذين يخططون للإصلاح الحقيقي[١]؟!

وهل لا تُحَل المشاكل إلا بأحد هذين الطريقين: التمرد الهدام أو التنصل السهل من كل مسئولية؟!

إن الواجب علىٰ المسلمين المسارعة إلىٰ مأسسة العمل السياسي والإداري كي يكون انتقال السلطة بطريقة طبيعية شورية، وبطريقة هادئة مبنية علىٰ الخبرة واكتشاف الطاقات، ووضع القواعد والأصول المناسبة للوصول إلىٰ القيادة.

٤- المسارعة إلىٰ وأد الفتنة في مهدها وقبل أن تستفحل، كما فعل الرسول ﷺ عندما حاول زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول استغلال الفرصة في الحادثة التي

---

(١) انظر للكاتب مقالًا بعنوان: «لماذا تُسْتَلب الجهود الإسلامية» وكيف انقلب الشباب علىٰ الشيوخ في حزب الاستقلال وحزب الشورىٰ المغربيان، وقد تعوَّد المسلمون علىٰ الانقلابات داخل الجماعات الإسلامية والأمثلة كثيرة فيما يمارس هذه الأيام.

وقعت أثناء الرجوع من غزوة «المريسيع» وذلك حين اختلف رجلان فنادىٰ أحدهما: يا للمهاجرين، ونادىٰ الآخر: يا للأنصار، ولإغلاق هذه الفتنة أمر الرسول ﷺ بالرحيل فورًا، فسار الجيش مسافة طويلة حتىٰ أصابهم التعب ونسي الناس هذه الحادثة.

وكما أسرع أبو بكر رضي الله عنه لحسم فتنة الردة.

والفتن إذا لم تتدارك قبل فوات الأوان استمرت إلىٰ غايتها، وستكون عواقبها وخيمة، فقد كان من نتائج مقتل الخليفة المظلوم تفرق المسلمين وضعفهم، ولم يستقم الأمر لعلي رضي الله عنه بعد ذلك، وندم لما وقع في معركة الجمل التي لم يردها، وكان من نتائج الجمل وصفين ظهور فرقتي الخوارج والشيعة.

٥- إن الذين خاضوا في الفتنة ويظنون أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان عليهم ألا يضخموا الأخطاء الصغيرة ويفرقوا الصف الإسلامي بسبب أمور يمكن تداركها.

وكان عليهم ألا يلتفتوا إلىٰ الشائعات إذا كان الرجل ممن جاوز القنطرة، فكيف إذا كان من الخلفاء الراشدين، والذي يعرف عنه الإخلاص والصدق يغفر له زلاته القليلة.

ويجب أن يعامل كل إنسان وما جبل عليه وسيدنا عثمان كان حييًّا، والناس يحبون أحيانًا الرجل الذي يحاسبهم ويسيرهم في كل صغيرة وكبيرة، وإذا لان لهم أو شاورهم في أمور ظنوا به الضعف.

كما أن هناك أسسًا وقواعد تساعد المسلمين علىٰ الحذر من المنافقين وأعداء الإسلام، مثل مفهوم أهل السنة وما يقابله من الفرق المنحرفة عن السنة، ومثل طبقات الناس وسوابقهم وأفضليتهم.

ولو أحسن فهم باب «الفتن» علىٰ وجهه الصحيح لعرف المسلمون فيه مفتاحًا عظيمًا لفهم التاريخ، فأحاديث طاعة الأمير وحديث «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» ليس من التناقض في شيء، وحاشىٰ الرسول ﷺ ذلك، إنما هو الفهم الدقيق

للتاريخ واعتبار الظروف والأحوال وأن الهدف الأساسي هو بناء الوحدة وجمع الصف ولو علىٰ حساب بعض الحقوق[١].

(١) رشاد خليل «المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ» (١٢٠).

(٥)
المسلمون والخلافة الراشدة

«إن الأمر العظيم لا يسهل دائمًا الاحتفاظ به» قول مأثور.

بقيت ذكرىٰ الخلافة الراشدة في أذهان المسلمين حاضرة دائمًا، وما فتئوا يقيسون كل حاكم أتىٰ بعد ذلك علىٰ هذه الفترة المضيئة السامقة، بل يقيسون علىٰ فترة أبي بكر وعمر خاصة، وقد استشرف هذه الحالة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما رأىٰ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يداوي إبل الصدقة بيده فقال: «**لقد أتعبت الخلفاء بعدك**».

وهذا الذي وقع حقيقة، فهذا الخليفة العظيم الذي ترتجف منه الفرس والروم وفتحت في عهده بلاد فارس والعراق والشام ومصر، يداوي إبل الصدقة بيده، وملبسه

خشن، ومأكله خشن وينام بلا حرس ولا جنود، هذا لم يعهد أبدًا في الدول والحكومات.

والمسلمون الذين طالبوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون مثل عمر في كل شيء، هؤلاء لا يدركون أن هذا مخالف لطبيعة وتكوين كل شخص، عدا عن صعوبة الأمر بحد ذاته لتميز عمر بشخصية فذة عبقرية.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما ربّىٰ أصحابه لم يكن ليغير من طبائعهم واستعداداتهم ولم يجعلهم نسخًا متماثلة، ولكنه استفاد من طاقاتهم ووجهها الوجهة التي تخدم الإسلام وأهله، كان عبد الله بن مسعود فقيهًا عالمًا، وخالد بن الوليد قائدًا عسكريًّا فذًا، وأبو هريرة حافظًا للسّنة...

إنّ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمثل الخلافة الراشدة بأسمىٰ معانيها، فقد ضحّىٰ بنفسه ولم يأمر بقتال الثائرين عليه، لأنه لا يريد أن يسفك دمًا مسلمًا يتعلق بشخصه.

ولعل هؤلاء الذين تجرءوا عليه وثاروا عليه فوجئوا بهذا اللون من الحكم الذي أعطاهم من التكريم والحرية ما لا

يحلمون به، فلم يحسنوا استغلال هذا التكريم والاستمرار عليه، ولم يشكروا هذه النعمة، وإذا كان قد اجتهد في تولية أقاربه وكانوا أكفاء لهذا العمل، فإن سياسة عمر في عدم تولية الأقارب هي أفضل وأحوط لسياسة الدولة.

وإذا كانت الخلافة الراشدة هي القدوة، وهي النموذج؛ فإن الذي جرىٰ علىٰ أرض الواقع بعد الخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو أقل من الخلافة الراشدة ولم يتحقق الاستمرار علىٰ هذه القمة السامقة، فالإنسان مركب علىٰ الضعف، ولذلك تحولت الآمال إلىٰ درجة أو درجات دون هذه الخلافة، ولكن مع بقاء تطبيق الشرع والحرص علىٰ العدل واستقلال القضاء والحماية للأمة، ذلك لأن الخلافة الراشدة نموذج فريد في تاريخ البشرية، وهل عاشت البشرية بعد عهود الأنبياء في ظل حكمٍ مثل حكم أبي بكر وعمر؟

وطريقة عيش هؤلاء الخلفاء معروفة وهي أشهر من أن نسطرها هنا، إنه مثلٌ أعلىٰ لا يحتمله كثير من الناس، وليس بعد المثل الأعلىٰ سعي جديد، فواقع الحياة سيشد الناس إلىٰ القبول بأقل من هذا.

هذه النظرة الواقعية إلىٰ ما بعد الخلافة الراشدة هي التي جعلت الإمام الذهبي يتحدث عن آماله في القرن الثامن الهجري يقول: «ونحن آيسون اليوم من وجود إمام راشد من سائر الوجوه، فإن يسر الله للأمة بإمام فيه كثرة محاسن وفيه مساوئ قليلة فَمَنْ لنا به؟!»(١).

وتحدث ابن تيمية عن ملوك بني أمية وبني العباس: «ما قال أهل السّنة أن الواحد من هؤلاء كان هو الذي يجب توليته وطاعته في كل ما أمر به، بل كذا وقع، فيقولون -أهل السّنة-: تولّىٰ هؤلاء، وكان لهم سلطان وقدرة، وأقاموا مقاصد الإمامة من الجهاد وإقامة الحج والجمعة والأعياد وأمن السبل، ولكن لا طاعة في معصية الله...»(٢).

ويقول أيضًا في معرض الحديث عن تولية الأصلح: «فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررًا فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤١٨).

(٢) «المنتقىٰ من منهاج الاعتدال» (٦١).

القوي الشجاع وإن كان فيه فجور علىٰ الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينًا»[١].

يتولد من عدم فقه هذا الأمر أن المسلمين اليوم لا يحققون شيئًا علىٰ أرض الواقع، وإنما يلوذون دائمًا بعالم غير متحقق، وإني لأحسب أن المسلمين اليوم يجمح بهم الخيال أن يأتي حكام مثل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن مُكِّن لهم في الأرض. إنَّ الهوة بين الواقع وبين هذا المثال النموذج الذي يجب أن نقترب منه، هذه الهوة لن تعبر أبدًا عبورًا كاملًا، إلا ما جاء في الحديث عن عودة الخلافة الراشدة قبل نزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إنّ عدم عبور هذه الهوة لا يعفي المسلمين أبدًا من السعي الدائب للاقتراب من هذا النموذج ومحاولة التحقق به في سياساتهم الشرعية ما أمكنهم ذلك، وهذا السعي شيء إيجابي؛ لأنه يحفز الهمم، ويظل الأمل يراود الناس لحكم فيه عدل وخير ودولة تطبق شرع الله وإن كان فيها أخطاء أو نقص في بعض الجوانب، وهذا أفضل من دولة تحارب الإسلام والمسلمين.

---

(١) «الفتاوىٰ» (٢٨/ ٢٥٤).

يقول الشيخ رشيد رضا: «وَلَحرية تبيح بعض المنكر ولا تمنع شيئًا من المعروف أهون من عبودية «استعباد» تنهىٰ عن المعروف وتأمر بالمنكر، فالعبودية تطفئ نور الفطرة البشرية»(١).

إنَّ انشداد المسلمين إلىٰ هذه الفترة المضيئة يجب ألا يمنعهم من الاهتمام بحاضرهم وكيفية التخلص من واقعهم الضعيف، والتفكير أيضًا بالمستقبل والتخطيط له.

إنّ واقع الدعوات اليوم يمكن أن يقاس علىٰ واقع الدول أيضًا فمن كان من القادة أو العلماء عنده علم وتقوىٰ نقبل به وإن كانت له هفوات وأخطاء مع المجاهدة دائمًا لتحقيق المثال الأفضل.

إنَّ بعض الناس يحاسب العلماء أو الدعاة علىٰ أشياء وقع مثلها من ملوك الدول الإسلامية الذين يبررون لهم أخطاءهم أو يلتمسون لهم الأعذار، فلماذا لا نسير بالدعوة سيرها الطبيعي مع معرفة ما يحيط بها والاستفادة من أخطاء الماضي.

---

(١) «مجلة المنار» م (٦/ ٦).

(٦)
فتن الباطنية
وأثرها على الأمة الإسلامية

لا تـأمنوا قومًـا يشـبُّ صـبيُّهم ... بـين القوابـل بالعـداوة يُنْشَـعُ[١]

إنّ الـذين تـرونهم إخـوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

مقدمة:

لا نبالغ إذا قلنا: أنه لا يوجد أمة من الأمم ابتليت بشيء أعظم مما ابتليت به الأمة الإسلامية بهذه الفرق التي تسمىٰ «الفرق الباطنية»، والتي تلتقي جميعها علىٰ التظاهر بالإسلام وإبطان الكفر، وتلجأ إلىٰ تأويل النصوص الظاهرة وإثبات معان لها باطنة، كما تلجأ إلىٰ الرموز وتفسير النصوص وإخراجها عن

---

(١) يُنشع: يُربَّىٰ.

معانيها، والغرض من وراء ذلك هو إبطال الشريعة، فإذا سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبق للشرع من يتمسك به.

وكل هذه الفرق خرجت من عبادة التشيع أو التظاهر بالتشيع لآل البيت خداعًا ومكرًا، لأن الأصل في هذا المصطلح من ناحية اللغة يعني: الأتباع والأعوان أو القوم، قال تعالىٰ: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: ٨٣]، وقال: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

فعندما يقال: شيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثناء خلافته فهو يعني أنصار علي ومحبيه في الفتنه التي وقعت بمقتل عثمان وما جاء من الأحداث بعدها، والأمر هنا واضح ولا تثريب في ذلك وهو محل اجتهاد وإن كان الحق مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولكن دخلت بعد ذلك عناصر أجنبية: ابن سبأ الذي نادىٰ بالوصية والرجعة ثم غالىٰ في علي عن قصد لإفساد العقيدة الإسلامية، وبعد مقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استغل هؤلاء الذين سيعرفون بعدئذ باسم الباطنية، استغلوا هذا الحادث لتأجيج عواطف المسلمين وإدخال العقائد الباطلة من خلال حب الحسين والتحسر علىٰ مقتله، وهكذا أدخلوا مبدأ العصمة للأئمة من نسل الحسين، وسب الصحابة، وقصة الإمام

الغائب وغير ذلك من البدع الشنيعة والانحلال عن ربقة الدين وهذا البلاء مستمر حتىٰ اليوم وليس تاريخًا مضىٰ وانقضىٰ، فهم متحالفون متناصرون مع أعداء الإسلام أنّىٰ كانوا إذا كان العمل ضد أهل السنة.

يقول حسن الشيرازي عن الطائفة النصيرية -وهي طائفة تؤمن بألوهية علي- يقول: «النصيرية شيعة أهل البيت».

ويقول الدكتور سليمان دنيا: «الآغاخانية الإسماعيليون، أليسوا منتسبين إلىٰ الشيعة؟!».

ويقول مصطفىٰ الشيبي: «الفكر الاثنا عشري استوعب آراء الشيعة القديمة إلىٰ الغلاة الإسماعيلية».

إن كل فرقة من هذه الفرق تفرخ فرقًا أخرىٰ فالإسماعيلية فَرَّخت: القرامطة والدروز والبهرة والآغاخانية، وهذه الفرق ليس لها مثيل عند الأمم الأخرىٰ، فالفتن والهرج هناك غالبًا ما يكون سياسيًّا أو صراعًا دينيًّا مكشوفًا، ولكن عندما يكون التخريب داخليًّا وباطنيًّا يبطن غير ما يظهر، فهذه الطامة، وهذا الداء الخفي الذي لا يتنبه له إلا القلة من الناس.

ولأن التخريب ليس من جهة واحدة، بل يتشعب ويتعدد مثل: إفساد العقائد، تحريف نصوص القرآن، الدس وتشويه التاريخ الإسلامي، الشعوبية ضد الجنس العربي، التحالف مع أعداء الإسلام.

وقد صدق الشيخ رشيد رضا عندما قال: «وإنني أعتقد منذ عقلت أن دسائس المجوس هي التي فرقت كلمة سلفنا، ودسائس الإفرنج هي التي فرقت كلمة مسلمي عصرنا»(١).

ويقول أيضًا: «الذي أستنبطه من طول البحث والمقارنة أن أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسي التصوف هم باطنية في الحقيقة، ثم قلدهم كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها»(٢).

والعجيب أن يتنبه لغرابة هذه الطائفة في تاريخ الإنسانية المؤرخ الأمريكي «ول ديورانت» ولا يتنبه لهذا بعض المسلمين، يقول هذا المؤرخ عن الباطني من فئة الحشاشين الذي قتل

---

(١) شكيب أرسلان: رشيد رضا وإخاء (٤٠) سنة (٣١٦).
(٢) رشيد رضا «تاريخ الإمام» (١/ ١١٥).

الوزير السني في دولة السلاجقة الحسن بن علي والملقب بـ«نظام الملك»[١] يقول: «وكان هذا القاتل عضوًا في طائفة من أعجب الطوائف في التاريخ، وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة في كتابه «سياسة نامة» بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعية أهل فارس الساسانية»[٢].

هذه الفرق وما قامت به من فتن كان أساسها في الغالب من المشرق، من مجوس فارس كما يقول الشيخ رشيد رضا: «لم توجد في الدنيا جمعيات أنفذ سهامًا من جمعيات الباطنية التي أسسها عبد الله بن سبأ اليهودي ومجوس فارس لإفساد الدين الإسلامي»[٣].

وهذا مصداق ما جاء في الحديث عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن

---

(١) هو الذي بنىٰ دور العلم للفقهاء، وأنشأ المدارس للعلماء، وأجرىٰ الحبر والورق لمن كان من أهل طلب العلم، مضافًا إلىٰ أرزاقهم، ولم يكن في أوائل الشام إلىٰ سائر الشام الأعلىٰ وديار بكر والعراقين وخراسان إلىٰ سمرقند ووراء نهر جيحون طالب علم أو متعبد أو زاهد إلا وكرامته شاملة له (اهتمام نظام الملك به).

(٢) «قصة الحضارة» (١٣/ ٢١٦).

(٣) «تفسير المنار» (٨/ ٢٢٥).

رسول الله ﷺ وأشار بيده نحو المشرق فقال: «**ها إنَّ الفتن من هاهنا، ها إنَّ الفتن من ها هنا، إنّ الفتن من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان**»(١).

والسبب في هذا الحقد علىٰ الإسلام وعلىٰ الفاتحين العرب هو ما كانت عليه دولة الأكاسرة من القوة والاتساع، ثم زالت هذه الإمبراطورية علىٰ يد الفاتحين الذين كان ينظر اليهم علىٰ أنهم قبائل بدوية لا أهمية لها، كانت سلالات الأرستقراطية المهزومة من الأكاسرة وكذلك كهنة الزرادشتية والمجوسية تعمل جادة لإفساد مؤسسات التربية الإسلامية وتخريب ثمراتها، واندست تحت مظلة التشيع، وراحت تُدخل في الحياة السياسية والثقافية عقائد وعادات الفرس المجوس مثل عصمة الأئمة وقداسة أسرة معينة، ووصل الأمر ببعض الفرق الباطنية إلىٰ تبني الإباحية والاشتراكية في النساء والأموال كما هي عقائد المزدكية الفارسية.

ولابد أن نذكر هنا الغموض الذي يحيط بنشأة بعض هذه

(١) «مسند الإمام احمد» (٩/ ١٢٠).

الفرق وغموض تطور هذه الفرق، فالإسماعيلية مثلًا وبعد أن ساقوا الإمامة إلىٰ إسماعيل بن جعفر الصادق، ثم إلىٰ ابنه محمد لأن إسماعيل توفي في حياة أبيه وبعد محمد هذا هناك فترة طويلة غامضة لا يعرف عنها شيء حتىٰ أواخر القرن الثالث حيث ظهرت القرامطة، وظهرت الدعوة التي تسمىٰ بـ«الفاطمية»؛ ولذلك كثر الاضطراب حول نسب عبيد الله المهدي المؤسس للدولة الفاطمية هل هو ابن لحداد كان في مدينة سلمية تزوج أمه أحد الأشراف وربَّىٰ هذا الغلام، فلما كبر ادعىٰ النسب لنفسه؟! ورواية تقول: إن عبيد الله المهدي هو من نسل ميمون بن ديصان القداح الذي كان مولىٰ لجعفر الصادق، ومن أحفاد ميمون هذا سعيد بن الحسن بن عبد الله بن ميمون، وهو الذي تقمص شخصية عبيد الله المهدي وادعىٰ الانتساب وانتقل إلىٰ شمال إفريقيا وأسس الدولة الفاطمية ولذلك تسمىٰ الدولة العبيدية.

هذه الفرق، وهذه الفتن وهذا الدس كله تستر تحت عباءة التشيع تحت شعار «حب آل البيت» ستارًا يخفون وراءه كل أهوائهم وأغراضهم، فظهر أثر اليهودية في قولهم بالرجعة «رجعة الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الحياة الدنيا»، وظهرت النصرانية في إضفاء

صفات الألوهية علىٰ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبنيه، وظهرت ولاية الفقيه وفيها شبه بسلطة البابا الدينية لأنه يعتبر عندهم خليفة للقديس بطرس.

وهكذا اجتمعت كل انحرافات الأديان والمذاهب في هذه النحلة وهذه الفرق.

وهذا مما حدا بعلماء المسلمين أن يصارحوا الأمة من خلال اطلاعهم علىٰ تاريخ المسلمين بما فعل هؤلاء وما زالوا حتىٰ اليوم.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلينظر كل عاقل فيما يحدث في زمانه وما يقرب من زمانه من الفتن والشرور والفساد في الإسلام، فإنه يجد معظم ذلك من قبل الرافضة تجدهم من أعظم الناس فتنًا وشرًّا»(١).

وكلام شيخ الإسلام في غاية الدقة «ما يحدث في زمانه وما يقرب من زمانه» وهذا هو الواقع الآن في زماننا، فلا يقولن أحد: هذه قصص قديمة وأحداث انتهت، وهي في الحقيقة لم تنته ليس

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٤٣).

من قبلنا أهل السنة - ولكن من قبلهم، فهم ما يزالون علىٰ فتنهم وإفسادهم ومحاربتهم لأهل السنة في كل بلد يستطيعون أن يبذروا بذور الفتن، ويتعاونوا مع أعداء الإسلام في سبيل ذلك.

وبسبب خطورة هذه الفرق الباطنية، وآثارهم السيئة في تاريخ المسلمين السياسي والحضاري، فسوف نتحدث عنهم إن شاء الله من خلال الفقرات التالية، التي هي وسائلهم للهدم.

١- الإفساد العقدي.

٢- الزندقة والشعوبية.

٣- الثورات والفتن علىٰ الدول الإسلامية.

٤- التحالف مع أعداء الإسلام.

٥- اغتيال الملوك الصالحين والعلماء العاملين.

٦- نموذج من الدول التي أقاموها.

٧- بعض أقوال العلماء فيهم.

الفساد العقدي:

إن أساس دين الإسلام هو توحيد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته، وأمره ونهيه.

أي: إخلاص العبودية له، ونفي كل ما يضاد ذلك من أنواع الشرك والكفر.

ولكن دين هذه الفرقة «الرافضة» مبني كله علىٰ الشرك، فقد فسروا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] قالوا: «يعني: إن أشركت في ولاية أحد مع ولاية علي رضي الله عنه ليحبطن عملك»(١).

وقد صنفوا كتابًا باسم «مناسك المشاهد» وجعلوا قبور المخلوقين تحج كما يحج إلىٰ بيت الله الحرام، وقالوا بوجوب طاعة الأئمة «الاثنا عشر» في التحليل والتحريم والعطاء والمنع؛ فجعلوهم أربابًا من دون الله كما فعل النصارىٰ برهبانهم(٢)، وقالوا: إن زيارة قبر الحسين تعدل عشرين حجة وأفضل من

(١) ناصر القفاري «أصول مذهب الشيعة» (٢/ ٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٤).

عشرين عمرة!؟

ويروون في كتبهم الشرك وينسبونه إلىٰ جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ.

فعن سماعة بن مهران قال: «كنت عند أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فأرعدت السماء وأبرقت، فقال أبو عبد الله: أما إنه ما كان من هذا الرعد ومن هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم، قلت: ومن صاحبنا؟ قال: أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ»؛ يعني عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقول الخميني عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفته «خليفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القائم مقامه في الملك والملكوت المتحد بحقيقته في حضرت الجبروت واللاهوت».

أليس هذا شركًا في الربوبية وهو من القول بالاتحاد، الذي هو كفر محض.

ومن عقائدهم الفاسدة: الباطلة قولهم بعصمة الأئمة «الاثنا عشر» وأنهم مطهَّرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنبًا لا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم أفضل من الأنبياء كما ذكر المجلسي في كتابه «بحار الأنوار».

ومن عقائدهم الفاسدة: اعتقاد غيبة الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر وسبب هذا الحمق «كما يقول السمعاني» هو أنه لا دين عندهم بلا إمام وبالإمام بقاء الكون، ولو بقيت الأرض بغير إمام لساخت ولكن الإمام «الحسن العسكري» مات بلا عقب، فتحيرت الشيعة واختلفت في أعظم أمر عندها ثم زعموا أن الحسن العسكري أخفىٰ مولد ابنه وستر أمره.

والحقيقة أن وراء دعوىٰ غيبة الإمام ورجعته الرغبة في الاستئثار بالأموال باسم نواب الإمام، والقول بالغياب والرجعة هو مهرب نفسي ينقذون به نفوس الفرقة من الإحباط واليأس، وقصة الغيبة لها أصل يهودي، لأن اليهود يعتقدون أن «إيليا» رفع إلىٰ السماء وسيعود في آخر الزمان.

والإمام الغائب إذا عاد «يحكم بحكم داود وسليمان ولا يُسأل عن بينة» وهذا مذكور في كتابهم «الكافي»؟.

وأول من قال بالرجعة إلىٰ الدنيا بعد الموت هو: ابن سبأ، وهو أول من قال بعصمة الأئمة والوصية لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «فتنة ابن سبأ وزمرته كانت

من أعظم الفتن التي نبت في ظلها المذهب الشيعي».

ويقول الأستاذ سعيد الأفغاني: «ابن سبأ أحد أبطال جمعية سرية تلمودية لتقويض الدولة الإسلامية».

ومن ضلالاتهم: إيمانهم بمبدأ «التقية» وهو كتمان الحق وستر الاعتقاد عن المخالفين، والمخالفون هم أهل السنة.

يقول ابن بابويه: «التقية واجبة، من تركها بمنزلة من ترك الصلاة. لا دين لمن لا تقية له».

وهذا مبدأ خطير لأنهم يفعلون كل شيء ويكذبون ويقولون: هذا تقية.

ومن أخطر ما قاموا به هو تحريف القرآن بقولهم أن له باطنًا غير الظاهر، وهكذا راحوا يعبثون بآيات الكتاب، فكل تحريم في القرآن هو الظاهر، ولكن الباطن المقصود هو أئمة الجور «أهل السنة» وهذا المنحىٰ لا ضابط له ولا نظام، ويقتضي عدم الثقة بالألفاظ، ويسقط الانتفاع بكلام الله، وهم بهذا المنهج يتوصلون إلىٰ هدم الشريعة.

فآية ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٢] المقصود: طلحة والزبير رضي الله عنهما، والشجرة الملعونة في القرآن هم «بنو أمية» وأصحاب اليمين هم الشيعة، وهكذا وبهذا التأويل والتحريف يصلون إلىٰ درجة من الهدم وقلة العقل ما لا يوجد في أمة أخرىٰ من الأمم.

ثوراتهم وحركاتهم الهدامة:

لم تهدأ المعارك التي تقودها الباطنية المجوسية لهدم الكيان الإسلامي، فكانت معارك ثقافية، وكانت معارك عسكرية، ثورات متواصلة علىٰ الدول السنية، وأخيرًا استطاعت هذه الباطنية إسقاط الخلافة العباسية عندما تعاونوا مع أعداء الإسلام «المغول» كما هو معروف من أحداث التاريخ.

وسنذكر نماذج من هذه الثورات لأن الحديث يطول عن تفاصيلها.

١- ثورة بابك الخرّمي (٢٠١ – ٢٢٢هـ):

وهي حركة دينية باطنية متلونة بثوب إيراني، ثائرة علىٰ الدولة العباسية، كان بدء خروجها سنة (٢٠١هـ) في مدينة «البذ» من إقليم أذربيجان، وجه إليه الخليفة العباسي المعتصم القائد

العسكري «الأفشين» فسار إليه وحاصره حصارًا شديدًا، وسد عليه كل المنافذ حتىٰ أخذه أسيرًا إلىٰ بغداد، حيث قتل في دار المعتصم.

وكان بابك قد هزم عددًا من الجيوش التي أرسلت لمحاربته، وقتل عددًا كبيرًا من المسلمين وأسر الآلاف، وقد اضطر الخليفة العباسي لصرف خزينة الدولة كلها للقضاء علىٰ هذه الثورة.

وكان من أعمال بابك الإجرامية أنه راسل ملك الروم «توفيل» يعلمه أن جنود المعتصم بعيدين عنه، فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك فخرج «توفيل» وأغار علىٰ «ملطية» و«زبطرة» فقتل وسبىٰ، وهي الواقعة التي اضطر فيها المعتصم لغزو الروم في الغزوة المشهورة «عمورية»[(١)].

٢- حركة القرامطة:

حركة باطنية تنتسب إلىٰ داعية الإسماعيلية حمدان قرمط، تركزت شرقي الجزيرة العربية ومركزهم ناحية «هَجَر» وراحت

(١) ابن الأثير «الكامل» (٦/ ٣٨).

هذه الفرقة تعيث فسادًا في الأرض، ففي سنة (٣١٧هـ) خرج الناس إلىٰ الحج من مدينة بغداد، فلحقهم أبو طاهر الجنَّابي، وسار إلىٰ مكة وقام بنهب الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام، ورمىٰ القتلىٰ في بئر زمزم، وخلع باب الكعبة ووقف ينشد:

أنـــا بـــالله وبـــالله انـــا يخلـق الخلـق وأفنـيهم أنـا

وخلع الحجر الأسود وأخذه معه إلىٰ مركزهم «هَجَر» وبقي الحجر عندهم نيفًا وعشرين سنة.

وفي سنة (٣٦٠هـ) وصل القرامطة إلىٰ دمشق وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وشنعوا بأهلها(١).

٣- حركة سنباذ:

وهو أحد قواد أبي مسلم الخراساني، فلما قُتل أبو مسلم أخذ سنباذ ينادي بالثأر له، وادعَّىٰ أن أبا مسلم لم يمت، والتف حوله أنصار كثيرون، فاستولىٰ علىٰ نيسابور وقوص والري، وأفسد في البلاد، إلىٰ أن قتله أحد عمال الخليفة المنصور في طبرستان.

---

(١) الذهبي «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٢٠)، و«تاريخ أخبار القرامطة» (٥٧).

٤- ثورة الزَّنج:

وهي ثورة يدندن حولها اليوم الباطنيون وأصحاب المذهب الاشتراكي أو الشيوعي، ويعتبرونها ثورة اجتماعية قام بها العمال والفلاحون ضد الظلم والإقطاع.

وصاحب هذه الثورة -وبالأصح هذا الشغب- هو علي بن محمد الذي يدعَّي النسب لآل البيت، ويغير نسبه حسب المناطق فمرة ينتسب إلىٰ أحمد بن عيسىٰ بن زيد، ومرة إلىٰ يحيىٰ بن زيد، ومرة يقال عنه «خارجي» أصله من مدينة الري، أقام في البصرة وسامراء وبغداد، وله صلة بالحسن بن سهل عن طريق ابنه محمد بن الحسن، وهذا أمر يثير الريبة حول تغلغل الفرس بالدولة العباسية.

قال المؤرخون عنه: صاحب دعاوىٰ ومخاريق، يتعاطىٰ التنجيم والسحر.

يروي الطبري عنه يتحدث عن نفسه: «رُفعتْ إليّ البصرة بين السماء والأرض، ورجل واقف قد خفض يده اليسرىٰ ورفع يده اليمنىٰ، يريد قلب البصرة بأهلها، فعلمت أن الملائكة تنصرني»[(١)].

---

(١) صالح العلي «صاحب الزنج» (٥٣).

استمر قتاله للدولة العباسية حوالي عشرين سنة ومنذ عام (٢٥٨هـ) بدأت الدولة تسخِّر كل ما لديها لمحاربة هذا الأفَّاق وأوكلت المهمة إلىٰ أخي الخليفة أبي أحمد الموفق ودامت المعارك بين الفريقين في البر وفي الأنهار والخنادق وأخيرًا انتصرت الدولة علىٰ هذه الثورة وبعد خسائر كبيرة من الطرفين.

لقد كثرت التخمينات حول طبيعة هذه الثورة، ولكن من خلال قراءتي لمختلف الآراء، تبين لي أنها حركة باطنية استغلت الزنج والعمال الذين يعملون في الأراضي الزراعية جنوب بغداد.

الشعوبية
والحرب الثقافية

قومًا يدينون دينًا ما سمعت به عن الرسول ولا جاءت به الكتبُ

فمن يكن سائلي عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقتل العربُ

١- الشعوبية والزندقة:

هذه واحدة من الحرب الثقافية التي شنتها الباطنية المجوسية علىٰ الإسلام وأهله، وهي حرب خفية فيها دس وتشويه وإثارة شبهات، وأصلها عصبية فارسية تعاظم أهلها زوال الدولة عنهم بالفتح الإسلامي، فكرهوا من جاء بهذا الفتح وهم العرب، ومن ثمَّ كرهوا اللغة التي جاء بها العرب، والجزيرة التي خرج منها العرب، وهذا في باطنه كره للإسلام.

وأصل المصطلح من قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن بعض

تفاسيرها أن الشعوب هم غير العرب والقبائل هم العرب، فسميت هذه النزعة المتعالية وغير المنصفة والحاقدة من بعض الشعوب الأعجمية بـ«الشعوبية».

بدأت هذه النزعة، وهي ضمن تخطيط ولا بد، برفع شعار «التسوية» أو «المساواة» بين العرب وغيرهم والدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وحديث: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» وغيرها من النصوص ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، أو هو لم يكن هكذا، بل كان يخفي وراءه مشروعًا عنصريًّا لإظهار تفوق الشعوب غير العربية وخاصة الفارسية علىٰ العرب، وبالتالي رفض ما جاء به العرب.

وقد ينخدع بعض الناس البسطاء بشعار التسوية ويطالب بها دون أن يعلم ما تخفي وراءها.

فلم يلبث هؤلاء بعد رفع هذه الشعارات أن انتقلوا إلىٰ الفخر بالعجم واحتقار العرب، وأنهم ليسوا سوىٰ بدو جاءوا من الصحراء وليس عندهم علم ولا ثقافة، وأن غير العرب هم أكثر تفوقًا وبكل الاعتبارات، وطعنوا في اللغة العربية وقالوا: إن اللغات مثل اليونانية والفارسية هي أخصب وأغنىٰ من اللغة

العربية، وبدأوا بنشر آثار الفرس، فترجم ابن المقفع كتاب «التاج» في سيرة الملك أنوشروان، وكتاب «مزدك» واهتموا كثيرًا بديوان «الشاهنامة» للفردوسي وهي ملحمة شعرية تمجد ملوك فارس وتعظم من دولتهم وتحتقر العرب، وليس غريبًا أن يمدح هذه «الشاهنامة» رئيس إيران السابق محمد خاتمي حيث يقول: «إن الفضل يعود لحكيم الشعراء وشاعر الحكمة أبي القاسم الفردوسي الذي حفظ لنا اللغة الفارسية من الضياع بعد الفتح الإسلامي»(١).

وقد وصف هذه الشاهنامة والتي تعني «كتاب الملوك» لسان الدين بن الخطيب الأندلسي بأنها «قرآن فارس»، وتبع ذلك تأليف الكتب في مثالب العرب، كما فعل أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ الذي ألف كتاب «لصوص العرب» وكتاب «أدعياء العرب» وألف «علَّان الشعوبي» كتاب «المثالب» وأهداه لطاهر بن الحسين والذي هو من قادة المأمون العباسي، فأنعم عليه بثلاثين ألف درهم، ويذكر في كتابه هذا مثالب قريش، وبني مخزوم وهكذا حتىٰ يأتي علىٰ قريش كلها، وألف الهيثم بن عدي

(١) صباح الموسوي «الشعوبية» (٧٩).

كتاب «المثالب» ثم جهروا بالزندقة والشك، تظاهرًا بـ«التظرف الثقافي» فقال شاعرهم بشار بن برد:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينه والطين لا يسمو سُمُوَّ النار

وهذا رجوع إلىٰ المجوسية وتقديس النار وإله النور وإله الظلمة!

ويشكك كاتبهم مطيع بن إياس البقلي بالبعث ويقول: «الإنسان كالبقلة إذا مات لا يرجع.

ويكتب يونس بن أبي فروة كتابًا عن مثالب العرب وعيوب الإسلام ويرسله إلىٰ ملك الروم.

وهكذا «لا تزال الشعوبية تنتقل بأهلها من وضع إلىٰ وضع حتىٰ ينسلخوا من الإسلام لأنه نزل علىٰ نبي عربي، وكان العرب حملة لوائه عندما نزل»[١].

وهذا هو الاستكبار وعدم الخضوع لتوجيهات القرآن

(١) الجاحظ «البيان والتبيين» (٣/ ٣٥٩).

الذي نزل بالعربية، وهذا جحود النعمة الإسلام.

ويتعجب الأمير شكيب أرسلان من هذه العنصرية القومية يقول: «ما لنا نرىٰ الأوربيين وهم من الجنس الآري يتبعون رجلًا من الجنس السامي المحض «المسيح عليه السلام» ولا يستنكفون عن عبادته وتأليهه[١]، ولا تأخذهم العزة في قوميتهم، بينما نجد في العجم «الفرس» وبعض الأتراك والهنود[٢] من يأبىٰ أن يتبع دين النبي العربي، ولم يطلب منهم أن يؤلهوه ولا أن يقدسوه، إن هذا والله لعجب عجاب»[٣].

هذه الزندقة التي انتشرت في أوائل العصر العباسي قد ألجأت الخليفة المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور لأَنْ يرتب لها موظفًا خاصًّا سُمي «صاحب الزنادقة»، وأصولها من عقائد الفرس القديمة، كالثنوية والزرادشتية والمانوية والمزدكية، ففي أيام الملك قباذ بن فيروز ظهر «ماني» المتأول لكتاب زرادشت، الجاعل لظاهره باطنًا، وكان يدعو إلىٰ التشاؤم المطلق وإلىٰ فناء

---

(١) أي أن هذا واقعهم ولا يعني الرضا به، فهو شرك أكبر.

(٢) وبعض الأكراد والقوميين كحزب الطالباني في شمال العراق.

(٣) «حاضر العالم الإسلامي» (١/ ١٦٨).

بني الإنسان، ولذلك حرَّم الزواج ليتخلص العالم من شرور هذا الإنسان.

وجاء بعده «مزدك» فدعا إلىٰ إباحة الأموال والنساء، وأن الله جعل الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي، ولذلك انهار المجتمع الفارسي بهذا المذهب الفوضوي، وهذا النَّفَس الهدَّام للمجتمعات استمر خلال العصور، ففي أواخر القرن التاسع الهجري ظهرت في إيران الحركة «النقطوية» وهي لا تؤمن ببعث الأجسام في اليوم الأخر، بل إن ضيق الدنيا أو رخائها ثواب وعقاب علىٰ حسن الأعمال أو قبحها، وليس هناك جنة أو نار، ويرون استحلال كل شيء، ويعتقدون أن القرآن من تأليف محمد بن عبد الله ﷺ ومؤسس هذه الزندقة هو محمود بسيخواني، واستعان بزعمه بعدد الحروف والنقط في بيان مفاهيم القرآن، ولذلك سميت حركته بـ«النقطوية»[١].

(١) أبو الحسن الندوي «حياة الإمام السرهندي» (٥٦).

٢- تشويه التاريخ الإسلامي:

إن أعظم تشويه مارسته الفرق الباطنية هو الذي يمس الجيل الأول، الجيل الذي رباه الرسول ﷺ، وهو الجيل الذي نشر الإسلام وفتح الفتوح، وهو أعظم أجيال البشرية علىٰ الإطلاق، ما عدا الأنبياء، هذا الجيل الذي مدحه القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

ويزعم هؤلاء الباطنية أن الصحابة عدا عدد محدود منهم لم يزالوا منافقين في حياة الرسول ﷺ، وأنهم كتموا وصية الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه.

يقول ابن كثير: «من وصل إلىٰ هذا المقام -التواطؤ من الصحابة علىٰ معاندة الرسول ﷺ في حكمه ونصه علىٰ علي- من وصل إلىٰ هذا فقد خلع ربقة الإسلام».

وقال الإمام مالك: «من يشتم أصحاب النبي ﷺ ليس له نصيب في الإسلام».

ويقول الشيخ رشيد رضا: «هذا وإني أعتقد أن ما ذكره المفسرون من تحريف الرافضة للآيه الكريمة ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ وللأحاديث الشريفة في مناقب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس من الجهل باللغة العربية، وإنما هم قوم بهت وهم يعلمون ويحرفون الكلم عن مواضعه كاليهود الأولين الذين حرفوا البشارات بمحمد ﷺ»(١).

«وقد جاء في الحديث: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ ولا يداهن في دين الله، ولا يأمر الناس بما يعلم أن الحق في خلافه، ولا ينعت أحدًا بصفة إلا بما علمه ربه وبما أنبأه»(٢).

وإنه لمن أعظم الإفك وأعظم الفرية هذا الشك وهذا الدس علىٰ تاريخ الأمة الإسلامية كله، الدول الكبار كالأموية والعباسية والدول الصغار.

فهل تعيش أمة دون جذور، ودون ماض وتاريخ؟ أو هل كل هذا التاريخ بما فيه من أمور عظيمة وما فيه من حضارة، وما

(١) «تفسير المنار» (١٠/ ٤٥٧).

(٢) محمود محمد شاكر «جمهرة المقالات» (٢/ ٩٨٩).

فيه من نقص أيضًا ينسف هكذا؟!

إن الأمم التي ليس لها تاريخ طويل تبحث عن تاريخ، فكيف بالأمة الإسلامية التي تملك تاريخًا ناصعاَ، رغم كل العثرات؟!

التحالف مع أعداء الإسلام ومناصرتهم على المسلمين:

من البلايا التي اختصت بها الرافضة وما تشعب عنها من الفرق معاونة الكفار في قتالهم وعدائهم للمسلمين، وهذا لا يعرف لأحد من الفرق المعروفة غيرهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنه قط ما قام للمسلمين عدو إلا كانوا أعوانه».

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة، والحادثة الأعظم شناعة وظلمًا للمسلمين هي زحف التتار علىٰ بلاد المسلمين حتىٰ وصلوا إلىٰ بغداد وأسقطوا الخلافة، وقتلوا ما لا يحصىٰ من المسلمين، ودمروا بغداد وغيرها من المدن.

وكل هذا بتحريض ومساعدة الوزير ابن العلقمي الرافضي وكذلك وزير هولاكو ومستشاره نصير الدين الطوسي.

كانت البداية عندما زحف زعيم المغول «جنكيزخان» علىٰ المدن الإسلامية، والحضارة الإسلامية، وسبب ذلك يذكر في كتب التاريخ ويمكن اللرجوع إليه،.

وفي عهد حفيده «هولاكو» كان وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله[١] يدير الخطط ويراسل هولاكو ويشجعه علىٰ احتلال بغداد وإسقاط الخلافة.

وقد اتخذ لذلك الوسائل التالية:

١- إضعاف الجيش الذي هو المكلف بالدفاع عن بغداد وعن أي خطر علىٰ الدولة، فكان هذا الوزير يزيل أسماء الجند من الديوان[٢]، فكان عدد الجيش -كما ذكر المؤرخون- مائة ألف، ولم يبق منهم سوىٰ عشرة آلاف.

---

(١) كيف يكون وزيرًا لدولة سنية، هذا يدل علىٰ سذاجة هذا الخليفة وضعف عقله وإرادته.

(٢) أي: يسرح أكبر عدد ممكن كما في اصطلاحنا اليوم، والعجيب أنه قد مارس هذا الدور المتسلطون علىٰ الحكم في سورية من الطائفة الباطنية النصيرية من أمثال صلاح جديد وحافظ الأسد، قاموا بتسريح أكبر عدد من الضباط السنة، ويوقع علىٰ هذا التسريح رئيس الجمهورية أمين الحافظ، وهو من أصول سنية من مدينة حلب.

٢- مكاتبة التتار وإطماعهم في أخذ البلاد، بعد أن سهل لهم الأمور، وكشف لهم ضعف المقاومة.

٣- أوهم الخليفة أن ملك التتار جاء بقصد المصالحة وإنهاء القتال، فجاء الأمر من الخليفة ينهىٰ الناس عن قتال التتار، ولكن عندما حصل اللقاء بين هولاكو والخليفة كانت النتيجة قتل الخليفة وكل الوفد الذي كان معه، ثم جرىٰ قتل عامة أهل بغداد، ولم ينج منهم سوىٰ اليهود والنصارىٰ، ومن التجأ إلىٰ دار ابن العلقمي!

ولهول هذه الفاجعة أحجم المؤرخ ابن الأثير عن الكتابة حولها لعدة سنين، وهو القائل: «فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًّا»(١).

ويقول أيضًا: «فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله ﷻ آدم وإلىٰ الآن لم يبتلوا بثلها لكان صادقًا»(٢).

---

(١) «الكامل» (١٢/ ٣٥٨).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ٣٥٨).

ويقول ابن كثير في وصف دخول التتار إلىٰ بغداد: «ومالوا علىٰ البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ، ودخل كثير من الناس في الآبار وقني الوسخ وكمنوا لذلك أيامًا لا يظهرون، وقتل الخطباء والأئمة وتعطلت المساجد والجماعات عدة شهور وأصبحت بغداد خاوية علىٰ عروشها».

كل هذه الوحشية كانت بموافقة وزير هولاكو المرافق له نصير الدين الطوسي، وهو وزير الملاحدة الإسماعيلية الحشاشين في قلعة «ألموت».

يقول أحد شيوخ الرافضة «الخوانساري» في ترجمة الطوسي: «ومن جملة أمر المشهور استيزاره للسلطان المحتشم هولاكو[١] ومجيئه في موكب السلطان مع كمال الاستعداد إلىٰ دار السلام[٢] لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، بإبادة ملك بني العباس وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغام إلىٰ أن أسال

(١) هكذا يصف هولاكو، هذا لا يقوله رجل مسلم، بل لا يقوله رجل فيه شيء من الإنسانية، إنه الحقد الذي أعمىٰ قلبه حتىٰ نزل إلىٰ هذه الدرجات السفلىٰ.
(٢) يقصد: بغداد.

من دمائهم الأقذار كالأنهار»!

وقد مدحه الخميني أيضًا فقال: «وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحدًا منا بالدخول في ركب السلاطين فيجب الامتناع عن ذلك، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصرًا حقيقيًّا للإسلام والمسلمين مثل دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي».

ومن الأمثلة: أن الدولة العبيدية «الفاطمية» عندما رأت قوة الدولة السلجوقية وتمكنها في بلاد الشام، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرىٰ، أرسلوا إلىٰ الصليبيين يدعونهم لاقتسام بلاد الشام(١).

وقبل هذا عندما استولىٰ هؤلاء العبيديون علىٰ بيت المقدس عام (٤٨٩هـ) وكان في يد سقمان بن أرتق التركماني قال ابن خِلّكان: «ولو كان «بيت المقدس» في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين»(٢).

وفي بلاد الشام عندما شعر الإسماعيليون بخطر السلطان

(١) ابن الأثير «الكامل» (٩/ ١٤).
(٢) «وفيات الأعيان» (١/ ١٧٩).

نور الدين محمود، وأنه يمكن أن يأخذ قلاعهم، انضموا إلىٰ الحملة الصليبية وشاركوا ملك أنطاكية «ريموند» الحملة ضد الزنكيين(١).

ويقول الباحث والكاتب محمد كرد علي: «ومن الغريب أن شيعة جبل عاملة «جنوب لبنان» كانوا من حزب الصليبيين، كما كان هوىٰ الموارنة مع الصليبيين ويعملون عندهم أدلاء وتراجمة»(٢).

ولا يخفىٰ علىٰ أحد تحالف الدولة الصفوية في إيران مع أوربا لضرب الدولة العثمانية ووقف تقدمها في أوربا، وكان شعار هؤلاء الصفويين: «كلب المسيحي الإفرنجي أطهر من السنة الذين قتلوا الحسين»(٣)...

والقائمة طويلة، والحديث لا ينتهي عن مصائب هذه الفرقة في تصرفاتها وأقوالها وأفعالها.

---

(١) فرهاد دفتري «الإسماعيليون» (١٧٩).

(٢) «خطط الشام» (٢/ ١٤).

(٣) علي شريعتي: التشيع العلوي والتشيع الصفوي.

نموذج من دولهم الدولة العبيدية «الفاطمية»:

نشأت هذه الدولة من خلال نشاط الفرقة الإسماعيلية، ومن خلال بث الدعوة في بعض المناطق مثل جنوب العراق وشرق الجزيرة العربية واليمن، وتنتسب بزعمها إلىٰ إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد توفي إسماعيل في حياة أبيه، فنقلوا الإمامة إلىٰ ولده محمد بن إسماعيل.

وهي حركة خرجت من عباءة التشيع وانفصلت عن الفرقة الإمامية التي تابعت التسلسل بعد جعفر الصادق من خلال ابنه موسىٰ الكاظم... وهكذا إلىٰ الإمام الثاني عشر الذي دخل السرداب في مدينة سامراء حسب زعمهم وينتظرون خروجه وهو المهدي المنتظر.

يعتقد الإسماعيليون بالأدوار السبعة، فالسموات سبع وأيام الأسبوع سبع، والإمام السابع هو إسماعيل بن جعفر، وأدوار الأنبياء سبعة، كل دور يبدأ بنبي «الناطق» وهو الجانب الظاهري منه، وبعد كل «ناطق» يأتي «الوصي» الصامت وهو الأساس الذي يشرح للنخبة الحقائق الباطنة، وكل وصي يخلفه سبعة أئمة، وكل إمام سابع يرتقي إلىٰ مرتبة «الناطق» أي: إلىٰ

مرتبة النبي حيث ينسخ شريعة الدور السابق.

وكل الكتب المنزلة لها ظاهر وباطن، وإظهار الباطن من خلال التأويل، محمد ﷺ مسئول عن التنزيل و«علي» رضي الله عنه مسئول عن التأويل، ويؤمنون بشيء يسمونه العقل الأول أو العقل الفعَّال، وهو الواسطة بين الله وعباده... إلخ هذه اللخبطة اليونانية.

وهي إلىٰ جانب هذا التيه من عقائد اليونان، فقد حرفوا نصوص القرآن بحجة الظاهر والباطن، مما خرج عن مضامين التوحيد إلىٰ الشرك وتأليه البشر، فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] يعني: الإقرار بالإمام الناطق الذي يفيض عنه العلم!

النشأة والتأسيس:

بما أن الفرقة الإسماعيلية هي حركة باطنية، فلا بد أن تكون مستغربة ومستهجنة من قبل جمهور الأمة، ولذلك لجأت إلىٰ السرية والتخطيط في دعوتها وتحركاتها.

وقد نجحت في جنوب العراق حين تأسست حركة القرامطة (٢٨٦هـ).

ولكن وقع انشقاق بينها وبين القيادة المستقرة في بلدة سلمية من بلاد الشام، ولكن النجاح الفعلي هو عندما استطاع أحد الدعاة الملقب بـ«أبي عبد الله الشيعي» والذي نجح في اليمن ثم يكلف بمهمة في المغرب الإسلامي ويذهب إلىٰ هناك واستمال قبائل صنهاجة وتمكن واستدعىٰ من سلمية المدعو عبيد الله والملقب بـ«المهدي» ويسلمه الأمور في هذه المناطق.

والحقيقة أن أكثر المؤرخين والباحثين حول شخصية عبيد الله، وتأسيس الدولة الفاطمية يجمعون علىٰ غموض هذه الفترة بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله هذا، وهل هذا الأخير هو دَعِيٌّ استغل هذه السرية وتوصل إلىٰ هذه المكانة، أم هو وصي علىٰ أحد من ذرية محمد بن إسماعيل كما يدعي بعض الإسماعيلية في هذا العصر؟

استطاع عبيد الله أن يؤسس الدولة في القسم الشرقي من الغرب الإسلامي «تونس الحالية» وبنىٰ هناك مدينة المهدية، ثم تسلسل ملوكهم بعده: القائم ثم المنصور ثم المعز الذي نقل

مركز الحكم إلىٰ مصر، وخط مدينة القاهرة. وعاشت هذه الدولة ما بين (٢٩٧-٥٦٧هـ).

ولنا مع هذه الدولة الوقفات التالية:

١- هناك اضطراب كبير في نسب ملوك هذه الدولة كما ذكرنا في فقرات سابقة، بل هو أقرب إلىٰ التأكيد أنهم أدعياء النسب، وقد كتب محضر في بغداد يؤكد أنهم لا ينتسبون لآل البيت ووقع عليه علماء أهل السنة كما وقع عليه الشريف الرضي من آل البيت.

وعندما كتب أحد ملوكهم «العزيز نزار» إلىٰ أمير الأندلس عبد الرحمن الناصر يسبّه ويهجوه، رَدّ عليه الأمير الأموي: «أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك».

وعندما سأل أحد الأشراف المعز العبيدي عن نسبه لم يجبه بل نثر الذهب أمامه وقال: هذا نسبي، ومن لم يعجبه -وسل السيف- وقال: هذا حسبي.

وقد قامت دول لأناس من آل البيت كبني حَمّود في

الأندلس، والأدارسة في المغرب، وفي طبرستان ولم يفعلوا شيئًا مما فعله ملوك الدولة الفاطمية، من قتل علماء أهل السنة.

ومن التحالف مع أعداء الإسلام.

٢- موقفهم من علماء أهل السنة: حاول عبيد الله بعد أن تمكن أن ينشر مذهبه وضلالاته، ولكنه جُوبِهَ بمقاومة شديدة من علماء المالكية في القيروان، وكان بينه وبين بعضهم حوارات صدع فيها علماء السنة بالحق، ولم يخشوا بطشه ومنهم الإمام أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح المعروف بابن الحداد، وكانت نتيجة هذا التحدي من علماء المسلمين أن قتل عدد منهم رحمهم الله ومنهم ابن خيرون الإمام أبو جعفر المعافري، أمر عبيد الله بأن يداس حتىٰ الموت، فقفز عليه السودان حتىٰ مات[١].

والإمام الشهيد قاضي مدينة برقة محمد بن الحُبُلي،

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢١٧).

والإمام القدوة الشهيد أبو بكر الرملي المعروف بابن النابلسي.

قال له جوهر الصقلي القائد العسكري عند العبيديين زمن المعز: «بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أن يرمي الروم سهمًا وفينا تسعة، قال أبو بكر: ما قلت هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعة وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيرتم الملَّة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية! فضربه ثم أمر يهوديًّا أن يسلخه وهو حي، فسلخ من مفرق رأسه حتىٰ بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر حتىٰ بلغ الصدر فرحمه السلَّاخ فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضىٰ عليه رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان إذا ذكر المحدث الدارقطني قصة أبي بكر النابلسي غلبته العبرة وبكىٰ»[(١)].

ومنهم الإمام الشهيد إبراهيم بن البردون من القيروان اتهم بأنه يطعن في دولة العبيديين، فجيء به وابن هذيل

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٤٨).

إلىٰ عبيد الله الباطني رأس هذه الدولة، فقال لهم إخوة أبي العباس: أتشهدون أن هذا «يعني عبيد الله» رسول الله؟ فقالا: والله لو جاءنا هذا والشمس في يمينه والقمر في يساره يقولان إنه رسول الله ما قلنا بذلك، فأمر بذبحهما رحمهما الله.

٣- استعانتهم باليهود والنصارىٰ في إدارة الدولة: وهذا ينسجم مع عقائدهم وتوجهاتهم الباطنية المحاربة للإسلام، فاليهود والنصارىٰ أقرب لهم من أهل السنة.

وقد وصل أفراد من اليهود والنصارىٰ إلىٰ أعلىٰ المناصب كالوزارة والإدارة المالية، فاليهودي ذو الأصل العراقي يعقوب بن كلس هو الذي ذهب إلىٰ تونس والتقىٰ بالمعز العبيدي وأطلعه علىٰ ما تمر به مصر من أزمات سياسية واقتصادية، ودعاه إلىٰ احتلالها، وعندما تم للمعز الدخول إلىٰ مصر والتمكن من حكمها أسند تنظيم الإدارة الحكومية والإشراف علىٰ الدعوة الإسماعيلية إلىٰ ابن كلس هذا.

وفي عهد العزيز بن المعز عهد إلىٰ عيسىٰ بن نسطورس

النصراني بتولي دواوين الدولة وذلك عام (٣٨٤هـ) واستناب علىٰ الشام يهوديًّا يدعىٰ منشا بن إبراهيم القزاز وفي فترة ضعف الدولة استعانت بمتولي عكا بدر الجمّالي الأرمني الذي قيل أنه أسلم، ولكن كان جيشه يضم آلافًا من الأرمن المسيحيين، واستمر بعده ابنه الأفضل بن بدر بتشجيع هجرة الأرمن إلىٰ مصر(١).

وفي عهد الأفضل تولىٰ أبو البركات يوحنا بن أبي الليث ديوان التحقيق، وتولىٰ الديوان في جنوب مصر نصراني يعرف بأبي اليمن بن عبد المسيح.

وفي عهد أحد ملوكهم «الآمر» كان أصحاب الديوان: سامري اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب، وراهب يعرف بأبي نجاح بن قنا، وقد تسلط هذا الأخير علىٰ أموال الناس إرضاء للآمر، فسماه: الأب القديس الروحاني وفي زمن «الظاهر» و«المستنصر» كان

(١) أيمن فؤاد سيد «الدولة الفاطمية» (٥٩١).

للأخوين اليهوديين: أبو سعد إبراهيم وأبو نصر هارون مكانة كبيرة، وقد تولىٰ أبو سعد ديوان أم المستنصر فأصبح لها الكلمة الأولىٰ في مصر.

وفي عهد «الحافظ» تولىٰ الوزارة بهرام الأرمني وهو باق علىٰ نصرانيته.

٤- موقفهم من الحروب الصليبية: عندما علم وزيرهم الأفضل بن بدر الجالي أن الفرنج اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة السنة -وهؤلاء السلاجقة هم الأعداء بنظر الأفضل- أراد أن يقيم تحالفًا بينه وبين الصليبيين، وأرسل سفارة إليهم وقد وصلت والصليبيون يحاصرون مدينة أنطاكية، ويعرض عليهم التعاون في سبيل القضاء علىٰ السلاجقة، علىٰ أن تكون أنطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين.

ولم تثمر هذه المحاولات لأن الصليبيين في نيتهم أن كل المنطقة لهم[١].

(١) أيمن فؤاد سيد «الدولة الفاطمية» (٦٧٧).

وهكذا سقطت كل مدن جنوب بلاد الشام بأيدي الصليبيين، وكانت تحت حكم الفاطميين عكا جبيل، صيدا، صور.

وفي عهد آخر ملوكهم «العاضد» كان وزيرهم «شاور السعدي» يتحالف مع الصليبيين تارة، وتارة يطلب النجدة والمساعدة من السلطان نور الدين محمود، واكتشف قائد جيش الشام في مصر صلاح الدين الأيوبي هذه الألاعيب من شاور فقتله واستراح المسلمون من مؤامرته، ثم أنهىٰ صلاح الدين الدولة العبيدية «الفاطمية» وعادت مصر وبلاد الشام إلىٰ الخلافة العباسية في بغداد.

٥- الاقتصاد في عهدهم: يستغرب الدارس لهذه الدولة كثرة البذخ والإسراف عند ملوكهم، وكثرة المهرجانات والأعياد، وأسرة الملوك من الذهب. من أين أتوا بهذا المال؟ إنهم كعادة الحكام الظلمة يتسلطون علىٰ أموال الناس بالضرائب الكثيرة، وكفرقة باطنية يأخذون الخمس من أتباعهم، ويقول المؤرخون: لم يسلم في

وقتهم أي إنتاج أو أية مهنة أو أية حرفة من الضريبة والمكس[١]، وكانت الفوارق بين الطبقات كبيرة جدًّا حيث جمع الوزراء وكبار الموظفين ثروات ضخمة.

كما قال المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ولقد بشمن وما تفنىٰ العناقيد

فمصر بلد غني بثرواته الزراعية، فإذا جاء من يسرق أقوات الشعب فسيمتلك ثروات كبيرة، ومن الضرائب التي فرضوها ضريبة غريبة وهي ضريبة «النجوىٰ» يأخذها داعي الدعاة ويقدمها للحاكم الفاطمي.

وبسبب هذا الظلم في أخذ أموال الناس وصلت مصر في منتصف القرن الخامس إلىٰ أقصىٰ درجات الفقر.

لم تقدم الدولة العبيدية شيئًا ثمينًا للحضارة الإسلامية، لأنها بنيت علىٰ فساد في الاعتقاد، وفساد في إكراه الناس علىٰ هذا الاعتقاد، فقد ادعىٰ أحد حكامهم «الحاكم بأمر الله» ادعىٰ الربوبية، وكان يأمر الناس

(١) المصدر السابق (٧٤٩).

بالركوع له إذا دخل المسجد، وآراؤهم الفلسفية عن «العقل الفعال» و«إشراقات أفلوطين» لا تقيم حضارة؛ لأن الاهتمام بالمناقشات العقيمة حول هذه الآراء تذهب بالشيء الإيجابي المفيد للإنسان، عدا عن أنها آراء تعارض الفطرة السليمة.

الباطنية واغتيال
الشخصيات الكبيرة من الحكام والعلماء
من أهل السنة

كانت فترة عصيبة تلك التي شهر فيها «الحشاشون» وهم فرقة من الإسماعيلية النزارية[١]، مبدأ الاغتيالات لكبار الشخصيات السنية من العلماء أو الحكام الصالحين.

ففي عام (٤٩٥هـ) أدرج ملف الإجرام لهذه الفرقة مقتل مفتي أصبهان في الجامع القديم.

وفي عام (٥٠٥هـ) قتلوا عبد الله الخطيب قاضي أصفهان وعدو الباطنية الأول، وكان يعلم رَحِمَهُ اللَّهُ ما يكنه هؤلاء من الكره

(١) تزَّعم هذه الفرقة الحسن الصباح وجعل مقره في قلعة «ألموت» في شمال إيران، ومنها كان يرسل جنوده للاغتيالات، ويمنيهم بالجنان والحور العين في الحدائق التي أقامها بقرب قلعته، ويسقيهم (الحشيشة) تلاعبًا بعقولهم.

له، فاتخذ حرسًا ولبس درعًا تحت ثيابه، وقد تمكن باطني من طعنه أثناء صلاة الجمعة، وفي عام (٥٢١هـ) قتل الوزير معين الدين الكاشي وزير السلطان السلجوقي «سنجر» وقد قاد هذا الوزير حملة ضدهم وحاصرهم في حصونهم.

وفي عام (٥٣٤) وصلوا إلىٰ الخليفة العباسي المسترشد بالله الفضل بن أحمد، وكان دينًا ذا شهامة وشجاعة، خرج من بغداد إلىٰ همدان للإصلاح بين السلاطين السلاجقة، وفي معسكر السلطان مسعود تسللوا وقتلوه رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

وقد احتفلت قلعة «آلموت» سبعة أيام بمقتل الخليفة العباسي.

إن أكبر شخصية إسلامية ظفر بها هؤلاء الحشاشون هو الوزير القدير الحسن بن علي الملقب بـ«نظام الملك» وزير الدولة السلجوقية في أزهىٰ عصورها، في عهد ألب أرسلان وابنه ملكشاه، وهو الوزير الذي أنشأ المدارس التي سميت باسمه «النظامية» وانتشرت في كل أنحاء العالم الإسلامي لنشر السنة والعلم بشتىٰ فروعه، وقد كان من نتائجها الخير الكثير، وهذا الوزير هو الذي أدار أمور الدولة إدارة حسنة اغتاله الحشاشون

(١) الذهبي «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٥٦٥).

عام (٤٨٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن العلماء الذين قتلوا علىٰ يد القرامطة العالم الشهير محمد بن أبي الحسين الجارودي.

قال بن الحداد: «كأني أنظر إلىٰ الحافظ وقد أخذته السيوف وهو متعلق بيديه جميعًا بحلقي الباب حتىٰ سقط رأسه علىٰ عتبة الكعبة»(١).

ومن الأمراء الذين امتدت إليهم يد الإثم والجريمة أمير الموصل أبو سعيد البرسقي، استنجد به أهل حلب حين حاصرهم الصليبيون ومعهم دبيس الأسدي صاحب مدينة الحلة الشيعي وقد تحالف مع الصليبيين ليملكوا مدينة حلب.

واستطاع البرسقي إنفاذ حلب فما كان جزاؤه من الإسماعيلية علىٰ هذا النصر إلا أن دخلوا الجامع لاغتياله، وكانوا عشرة، دافع عن نفسه وقتل منهم ثلاثة وتكالب عليه الآخرون حتىٰ قتلوه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد كان ملك دمشق «يوري بن طغتكين» من المجاهدين في مواجهة الصليبيين، وأحس بتآمر وزيره عليه فقتله ومعه جمعٌ من

(١) أي أثناء هجوم القرامطة علىٰ الحجاج وهم حول الكعبة.

الإسماعيلية، وجاء الرد سريعًا من الحشاشين في قلعة «ألموت» أرسلوا اثنين تظاهرا بأنهما من جند الملك «يوري»، ولما وجدا الفرصة السانحة انقضا عليه بالسيوف والخناجر حتىٰ قتل رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد حاولوا قتل السلطان صلاح الدين الأيوبي عدة مرات ونجاه الله منهم، والقائمة تطول حول جرائمهم وفسادهم في الأرض، ولكن بعد القضاء علىٰ الدولة العبيدية في مصر، وبعد الحملات المتتابعة علىٰ وكر الإجرام في «ألموت» من فرقة الحشاشيين، ضعف هؤلاء القتلة، وانتهىٰ أمرهم، وتنفس الناس الصعداء. ليس المسلمين وحسب بل العالم كله كما يقرر المؤرخ الجويني الذي قال: «كل سكان العالم بالتخصيص أهل الإيمان نجوا الآن من شر مكيدتهم وخبث عقيدتهم، لا، بل كافة الأنام من خاص وعام يشاركون في هذه الفرحة»(١).

ولكن هل انتهوا فعلًا؟ لقد نبتت لهم نابتة في بلاد الشام في هذه الأيام ويقومون بأكثر مما قام به أسلافهم، ولكن العاقبة ستكون للمتقين المسلمين بإذن الله.

---

(١) برنارد لويس «الحشيشية» (١٢١).

أقوال العلماء فيهم:

عامر الشعبي وهو من كبار التابعين: «ما كُذِب علىٰ أحد من هذه الأمة ما كُذِب علىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

جعفر الصادق: «إنّ الناس أولعوا بالكذب علينا».

أبو عبيد القاسم بن سلام: «عاشرت الناس وكلمت أهل الكلام فما رأيت أوسخ وسخًا ولا أقذر قذرًا ولا أضعف حجةً من الرافضة».

أحمد بن حنبل في كتاب السنة: «ليست الرافضة من الإسلام في شيء».

الإمام الفريابي: «ما أرىٰ الرافضة والجهمية الا زنادقة».

أبو زُرعة الرازي: «الرافضة رفضوا الإسلام».

الإمام الإسفرائيني: «إن جميع فرق الإمامية ليسوا علىٰ شيء من الدين».

ابن تيمية: «ومن له أدنىٰ خبرة بدين الإسلام يعلم أن مذهب الرافضة مناقضًا له».

ابن القيم: «فإنهم –الرافضة– لا يكونون قط إلا أعوانًا للأعداء علىٰ أهل الإسلام، إنهم يَدَعون الطيبات ويأكلون

الخبائث، فإنهم عمدوا إلىٰ أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرءوا منهم، ثم والوا كل عدو من اليهود والنصارىٰ».

رشيد رضا: «لم توجد في الدنيا جمعيات أدق نظامًا وأنفذ سهامًا من جمعيات الباطنية التي أسسها عبد الله بن سبأ اليهودي ومجوس فارس لإفساد الدين الإسلامي وإزالة ملك دعاته العرب، وهؤلاء الروافض شر مبتدعة هذه الملة وتفريقًا لكلمتها، وقد سكنت رياح التفريق التي أثارها غيرهم من الفرق وبقيت ريحهم عاصفة وحدها، ولا يزالون يؤلفون الكتب والرسائل في القدح في الصحابة، وإني اعتقد أن ما ذكره المفسرون من تحريف الرافضة للآية الكريمة ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] وللأحاديث الشريفة في مناقب الصدّيق ليس من الجهل باللغة العربية، وإنما هم قومٌ بُهت يجحدون ما يعتقدون ويفترون الكذب وهم يعلمون، ويحرِّفون الكلم عن مواضعه كاليهود الأولين الذين حرِّفوا البشارات بمحمد ﷺ، والذي وضع لهم قواعد الرفض وخطط التأويل هم ملاحدة الباطنية يتوسلون بها إلىٰ هدم هذا الدين تمهيدًا لإعادة الديانة المجوسية»[(١)].

(١) «تفسير المنار» (١٠/ ٤٥٧).

(٧)
الفرص الضائعة

في عام (١٠٩٥م) كان بابا روما «أوربان» يخطب في مدينة «كلير مونت» الفرنسية حاثًّا الجماهير التي احتشدت في ساحة المدينة علىٰ التجهز لإنقاذ القدس من أيدي البرابرة «المسلمين»، ومن ثم احتلال فلسطين، ودعاهم أن يجعلوا الصليب علىٰ جباههم وفي صدورهم، وأخذ «أوربان» يتنقل بين المدن والبلدان داعيًا للحروب الصليبية.

وتشكلت الحملة الصليبية الأولىٰ[١]، ووصلت إلىٰ القسطنطينية، واستقبلهم الملك البيزنطي استقبالًا حسنًا، ووعدهم بالمساعدة بعد أن أقسموا له يمين الولاء، وتعهدوا بأن

(١) سبقتها حملة هي تجمع من المتحمسين ولكن دون قيادة أو تنظيم فهلكت في الطريق ولم تصل إلىٰ بلاد الشام

يردوا للدولة البيزنطية كل الأراضي التي يستطيعون استردادها من المسلمين.

وفي عام (٤٩٠هـ-١٠٩٧م) وصلت أخبار هذه الحملة إلىٰ السلطان «قلج أرسلان» صاحب مدينة قونية من بلاد الروم «تركيا اليوم» وانزعج السلطان الشاب لهذه الأخبار، وخشي منها أسوأ العواقب، وقرر الوقوف في وجهها، فقام بمناوشات لصدها عن مآربها، ولكن هذه الجحافل الكثيرة تغلبت عليه واجتازوا بلاده، واستطاعوا أخيرًا الوصول إلىٰ مدينة أنطاكية وهي من المدن الرئيسية في بلاد الشام.

وصمدت أنطاكية، وصمد قائدها المدافع عنها «ياغي سيان»، صمدت المدينة لتسعة أشهر، وهي تستنجد بملوك الدول المجاورة: ملك دمشق «دقاق» وملك حلب «رضوان»[١]، وابن منقذ صاحب قلعة شيزر قرب حماة، وابن ملاعب صاحب حمص؛ ولكن ما من مجيب، كل واحد من هؤلاء يخاف من الآخر، ويخشىٰ من حدوث انقلاب عليه أثناء غيابه، والأسوأ من كل ذلك هو ضعف الحس الجهادي، وضعف الشعور بالمصلحة العامة؛ كانت الإرادات

(١) وهما أخوان كل منهما يخاف من الآخر

والعزائم واهنة، ولم ينظروا إلىٰ عواقب نجاح الحملة الصليبية علىٰ العالم الإسلامي وعلىٰ أنفسهم.

كان صاحب الموصل «كربوقا» وبأمر من السلطان السلجوقي هو الوحيد الذي وصل إلىٰ أسوارأنطاكية، ولكنه وصل متأخرًا بعد أن سقطت أنطاكية بيد الأعداء، ومع ذلك كانت هناك فرصة لأن الصليبيين وجدوا المدينة فارغة من المؤن، فدب فيهم الجوع حتىٰ أكلوا الجلود والأعشاب، بل إن بعضهم عندما سمع بقدوم الجيش الإسلامي ركبوا السفن في نهر العاصي وولوا هاربين ولم يستغل حاكم الموصل هذه الفرصة وتراخىٰ في حسم المعركة وتفرق الجيش الذي جمعه، وأصبحت أنطاكية إمارة صليبية.

بعد سنوات من هذه الحادثة الأليمة، عزم سلطان السلاجقة «محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان» علىٰ مقاومة الفرنجة، وكلف صاحب الموصل الأمير مودود، القيام بذلك، وكان هذا الأمير معروفًا بالتقوىٰ وحب الجهاد في سبيل الله؛ فقدم الشام بجيشه والتقىٰ مع صاحب دمشق «طغتكين» وقررا مهاجمة الصليبيين، كان ذلك في عام (٥٠٧هـ) أي: بعد ستة عشر عامًا من وصول الصليبيين وفي مكان

يسمىٰ الأقحوانة قريب من حطين، نشبت المعركة وقتل من الفرنجة ألفان من أبطالهم وأعيانهم، وغرق كثير منهم في بحيرة طبريا، واختلط الدم بالماء وامتنع الناس عن الشرب أيامًا» وأفلت الملك الصليبي «بلدوين» بعد أن قُبض عليه ولم يعرفوه، ولحق المسلمون بالفلول المنهزمة التي لجأت إلىٰ غربي طبرية وظلت قابعة هناك ستة وعشرون يوما، واجتمع بدو المنطقة عازمين علىٰ إبادتهم، وبلغت طلائع المسلمين بيت المقدس ويافا ولكنهم اكتفوا بالمناوشات ولم يكمل الفتح، وضاعت الفرصة وانتظر العالم الإسلامي طويلًا لتحقيق النصر في حطين «صلاح الدين»[١]، وحتىٰ عندما اتفق مودود وطغتكين للعودة إلىٰ القتال في السنة التالية، لم ينفذ ذلك لأن الخنجر الباطني الإسماعيلي كان قد اغتال الأمير مودود في الجامع الأموي في دمشق[٢]، مما أدىٰ إلىٰ تفرق الجيش وتبدد الآمال.

ويعلق ابن الأثير علىٰ هذه الحادثة فيقول: «حدثني والدي قال: كتب ملك الإفرنج إلىٰ طغتكين بعد قتل مودود: إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها «يوم الجمعة» في بيت معبودها، لحقيق

(١) شاكر مصطفىٰ «تاريخنا وبقايا الصور» (ص٧٤).
(٢) طبعا هذا لمصلحة الصليبيين.

علىٰ الله أن يبيدها»[١].

وإن كان من المستبعد أن يرسل ملك القدس هذه الرسالة، ولكنها تعكس الشعور العام الذي أصاب المسلمين وسكان دمشق خاصة.

وفي العصر الحديث:

في عام (١٩٢١هـ) كان الزعيم الريفي محمد بن عبد الكريم الخطابي ينتصر علىٰ إسبانيا انتصارات باهرة، ففي معركة «أنوال» فقد الإسبان (١٧٠٠٠) من جنودهم وضباطهم، ودوت أخبار هذه المعركة في جميع أنحاء العالم، ولم يكن أي جيش أوربي قد ذاق مثل هذه الهزيمة الساحقة، وانضمت فرنسا المستعمرة للمغرب العربي، انضمت إلىٰ إسبانيا وفتحت جبهة مع الريفيين، وصبر الريفيون صبرا يفوق الوصف.

وتحملوا ما لا يطاق من قصف المدفعية وضرب الطائرات وسقط سبعون من معسكرات فرنسا، فاضطربت وقامت وقعدت وتحالفت بريطانيا معهم وقاموا بحصار «آجدير» عاصمة ابن عبد

(١) «الكامل» (الجزء التاسع ص١٥٠).

الكريم، وضربوا المدينة الصغيرة بالقنابل والغازات السامة، واضطر الزعيم الريفي للتسليم، ونفي إلىٰ جزيرة في المحيط الهندي.

دخل الإسبان إلىٰ «آجدير» وهم يحتلون حتىٰ اليوم مدينتي «سبتة ومليلة» في منطقة الريف، الجزء الشمالي من المغرب المطل علىٰ البحر المتوسط.

ويكتب شكيب إرسلان معلقًا علىٰ أحداث الريف: «وأما العالم الإسلامي فقد تخلىٰ بأجمعه عن الريف، ولم يفكر في معاضدته بشيء، **وذلك للأسباب الآتية:**

١- انصراف كل من الأقطار الإسلامية إلىٰ هم نفسه.

٢- فشو الاعتقاد في تركيا ومصر وقسم من بلاد العرب، بأن سياسة الاتحاد الإسلامي شيء مضر بالمسلمين، وهذا رأي الحزب الذي تحالف مع الإنكليز وتمنىٰ فوزهم في الحرب العالمية الأولىٰ.

٣- الاعتقاد بكون نجاح الريفيين مؤقتًا، وأنه لابد أن تكون الطائلة الأخيرة للإسبان»[(١)].

---

(١) «حاضر العالم الاسلامي» (٣/ ١٩٢).

وهكذا ضاعت الفرصة التي تتيح هزيمة دولة استعمارية والتخلص من تدمير الاستعمار لبلد إسلامي.

وتكتب جريدة «الديلي اكسبرس»: «وسيطول الزمن حتىٰ يأتي زعيم آخر، أو زعماء آخرون يزدرون بدولتين أوربيتين».

ويكتب مالك بن نبي: «فقد أثبت الأمير أن امبرطورية استعمارية يمكن النيل منها، وتحالفت الدول الاستعمارية لرأب الصدع المعنوي الذي أحدثه الأمير الريفي مع حفنة من الرجال في هيبة الأمم الاستعمارية»(١).

ويكتب الصحفي الأمريكي «فانسيت شين» عن معركة الريف: «وصلت وسط عجيج الغارات الجوية التي تقوم بها طائرات فرنسا وإسبانيا، ودخلت علىٰ ابن عبد الكريم في خندق بالخط الأمامي، إن روعة شجاعته لا حد لها، إيمانه بعقيدته لم يتغير علىٰ الرغم من الأخطار المحدقة به، ليتني كنت أستطيع البقاء معه مدة أطول لأزداد تأملًا ولأتعمق في دراسة هذه الظاهرة البشرية الفريدة، لقد كان إيماني يتجدد في قدرة الجنس البشري

(١) «مذكرات شاهد القرن» (١٢٨).

علىٰ الارتقاء إلىٰ القمم، ثمة هنا ما هو أفضل من العبقرية، القدرة علىٰ تقدير القوىٰ الجماعية وتوجيهها...».

لا شك أنها ظاهرة بشرية فريدة، لم تؤيد حتىٰ تستمر وتؤتي أُكلها، وضاعت الفرصة كما ضاعت في الأقحوانة من قبل، فهل من طباع العربي أو من طباع المسلم قصر النفس وقلة الجلد والاستمرار، مع أن هدي الرسول ﷺ كان حبه للعمل الدائم ولو كان قليلًا، ويفضله علىٰ العمل الكثير المنقطع، كما وُصف في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان عمله ديمة»، وبالمقابل نجد الغربيين لا يسأمون من طرح مشاريعهم ومتابعة أمورهم المهمة(١).

استفاد المسلمون في فترة الصلح الذي وقع بينهم وبين المشركين في صلح الحديبية، هذا الصلح الذي سماه الله ﷻ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قد أتاح للمسلمين نشر الدعوة والتنقل بين القبائل دون اعتراض أحد، والدليل أن الذين حضروا الحديبية وبايعوا بيعة الرضوان كانوا ألفًا وأربعمائة وبعد سنتين كان مع

(١) انظر للكاتب « مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية». الناشر: مكتبة الكوثر بالرياض.

الرسول ﷺ في فتح مكة عشرة آلاف.

أضاع المسلمون فرصة تاريخية إثر سقوط الاتحاد السوفييتي عندما كان بمقدورهم التواصل بطريقة فعالة مع المسلمين الذين تحرروا من قبضة الروس، ويسعون لإقامة المؤسسات العلمية والاقتصادية وقد انزاحت العراقيل السياسية والعسكرية، ولكن الذي وقع هو أن أهل الخير والدعوة ذهبوا إلىٰ تلك البلاد ليقدموا المساعدات النقدية التي لم يتعود الناس عليها هناك. وتسللت إسرائيل إلىٰ تلك المناطق ورجعت روسيا بطريقة أخرىٰ.

وفي هذه الفترة وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي كانت هناك أيضًا فرصة كبيرة للدعوة في مشارق الأرض ومغاربها، فالغرب كان يعيش حالة من الازدهار والارتخاء وكانت الحرية متاحة للجميع، وقد بنيت المساجد، وأسست المراكز والمدارس، وصدرت المجلات... ولكن الفرصة لم تكتمل وتترسخ، فالنفر الذين قاموا بأعمال العنف أضاعوا الفرصة، ولم تكن أعمالهم في صالح الإسلام والمسلمين، بل وكأن العدو كان ينتظرها ليجدد

الغارة علىٰ العالم الإسلامي، وأصبح المسلم وكأنه منبوذ القرن ومتهمًا أينما حل وأينما ارتحل.

وفي البلاد العربية، كانت الأفكار والأحزاب التي ظهرت في المنطقة، وهي أحزاب منبتة منقطعة عن تطلعات الأمة وعقيدتها، مثل القومية العربية والمؤدلجة ضد الإسلام والشيوعية والاشتراكية بكل مسمياتها وفروعها، هذه الأحزاب تهاوت وضعفت، وكان البديل الذي تتطلع إليه الجماهير هو الإسلام وكانت فرصة للعلماء والدعاة لتجذير الوجود والعمل لصالح الأمة وقد وقع شيء من هذا، ولكنه لم يكتمل حيث قام بعض الإسلاميين بحركاتهم غير المدروسة وغير الواقعية والتي لم تقم دينًا ولا دنيا.

إن الحديث عن الفرص الضائعة ليس من باب التلوم ولا من باب الترف الفكري، ولكنه من باب التفكير في الأخذ بالأسباب والعزائم، والتنبه للمستقبل.

إن الرؤية الصحيحة للأحداث وما ستئول إليه، واقتناص الفرص ليست مما يقال فيها: وكيف لنا أن نعلم ما ستصير إليه

الأمور، أو لم نكن نتوقع تبدل الأحوال بهذه السرعة.

وكأن هؤلاء يظنون أن لا تغيُّر في الظروف والأحوال، وكأن الزمن قد توقف، وهذا ليس من طبيعة الأشياء «فأحوال العالم والأمم لا تدوم علىٰ وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو انتقال من حال إلىٰ حال»(١).

الرؤية الصحيحة تأتي من معرفة السنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات ودرجة إتقان هذه المجتمعات للأسباب، وتأتي من العيون المبصرة إذا كان عندها رصيد كاف من دراسة القرآن الكريم، وعند مجيء الفرصة المناسبة فإن اللحظة تساوي قرونًا، وعندها تكون الزلة الواحدة تغرق سفينة الأمة بأسرها.

الرؤية تأتي من الفطنة والكياسة والفراسة، والمؤمن ينظر بنور الله.

ومن الأمثلة: أن هناك ما يشبه العرف التاريخي السياسي، وهو أنه **بعد هلاك طاغية متجبر عات فإن الذي يأتي بعده في**

(١) ابن خلدون. «المقدمة» (١/ ٣٢٠).

الغالب يحاول التخفيف من آثار السابق وإعطاء الناس شيئًا من الحرية، فلماذا لا تُستغل إلىٰ أقصىٰ درجة؟!

تنبه عالم الأندلس ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا المعنىٰ فقال: «قلما رأيت أمرًا أُمكن فضيَع إلا فات فلم يمكن بعد، وقال: إن إهمال ساعة يفسد رياضة سنة»(١).

وتنبه لها الشاعر محمد إقبال من بعد فقال:

لحظـة يـا صـاح إن تغفـل ألـف ميـل يبعـد المنـزل

وقد صدق.

إننا لا نتحدث عن الماضي، فالفرص موجودة حاضرة في كل زمان ومكان، فرئيس أمريكا السابق «نيكسون» اعتبر أواخر القرن الماضي «الفرصة السانحة» لأمريكا للهيمنة علىٰ العالم بعد غياب الإتحاد السوفييتي.

إن المتيقظ هو الذي يتنبه للفرصة ويترجمها عمليًّا ويسخرها لأهدافه التي هي النهوض بالأمة وتقدمها.

---

(١) يقصد: تدريب النفس وتعويدها أفعال الخير ومداومة الطاعات.

(٨)
اتركوا الترك ما تركوكم

جاء في الحديث الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اتركوا الترك ما تركوكم، ودعوا الحبشة ما ودعوكم**».

كيف نفسر هذا الحديث ونتفهمه وننزله علىٰ الواقع؛ إنها نصيحة مشفقة من الرسول ﷺ، بل هي رؤية مستقبلية كان علىٰ المسلمين التنبه لها والاستفادة منها في حياتهم السياسية، وفي الأحداث الكبرىٰ التي يمرون بها.

هل من الواجب علىٰ المسلمين أن يدركوا أن الأطراف التي يمكن أن يصل إليها الإسلام محدودة، وألا يطمع المسلمون في أسلمة العالم كله، وأن هذا الحديث فيه الإخبار بأطراف المسافة التي يستقر فيها الملك الإسلامي وتعيين الحدود التي لا ينبغي مجاوزتها.

كما يقول الشيخ المرصفي(١): «إنه من القدر الكوني أن يبقىٰ الصراع في العالم بين الحق والباطل وبين الخير والشر، ولن يدخل العالم كله -بلا استثناء- في إطار فكري أو عقدي واحد، ولذلك فإن كل الأفكار الطوباوية البشرية التي حلمت بالسيطرة علىٰ العالم بسبب فكرة معينة، كلها فشلت وتلاشت».

لماذا لم يتنبه المسلمون إلىٰ هذا الحديث وأمثاله من الإشارات التي أشار إليها الرسول ﷺ بزكانته وحرصه علىٰ الأمة الإسلامية؟!

لماذا لا تدرس أحاديث الرسول ﷺ التي يذكر فيها الوجهة التي يفضلها لنشر الدعوة والوجهة التي يحذر منها، وأن الفتنة ستأتي منها، مثل إشارته إلىٰ المشرق والفتن التي تأتي منه.

إنّ هذه النصيحة من الرسول ﷺ وهذه الإشارة البالغة الأهمية ظهرت جلية واضحة عندما حل بالعالم الإسلامي الفاجعة الكبرىٰ في القرن السابع الهجري، إنها فاجعة اجتياح المغول لغالب العالم الإسلامي وتدميره تدميرًا كاملًا.

---

(١) «الكلم الثمان» (٢٠).

وهي التي يقول عنها المؤرخ ابن الأثير في «كامله»: «حادثة لم يسمع بمثلها في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحَور بعد الكَور، ومن الخذلان بعد النصر، ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سَمع بها»(١).

ويتابع ابن الأثير تأسفه وحزنه يقول: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليها رِجْلًا وأؤخر أخرىٰ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًّا...

فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله ﷻ آدم وإلىٰ الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا»(٢).

كان السبب المباشر لهذه الفاجعة، أو كانت البُداءة بالشر كما يعبر ابن كثير هو من التصرف السيئ من خوارزم شاه علاء

(١) «الكامل» (١٢/ ٣٦٠-٣٦١).
(٢) «الكامل» (١٢/ ٣٥٨).

الدين محمد بن علاء الدين تكش صاحب الدولة الخوارزمية والقريبة من بلاد المغول، وقد توسعت هذه الدولة الخوارزمية حتىٰ شملت كل إقليم خراسان وما وراء النهر، وفيها مدن بخارىٰ وسمرقند، وشملت إقليم مكران وكرمان والري وغزْنة وهذا مما أصاب خوارزم شاه بالغرور والتصرفات الطائشة.

وبداية الحادثة كانت كما يذكرها ابن الأثير: «أن جنكزخان المعروف بـ«تموجين» كان قد سيَّر جماعة من التجار والأتراك، ومعهم بضاعة إلىٰ بلاد ما وراء النهر «سمرقند وبخارىٰ» ليشتروا له ثيابًا للكسوة، فوصلوا إلىٰ مدينة تابعة لخوارزم شاه وكان له نائب هناك، فلما ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلىٰ خوارزم يعلمه ويذكر ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال، فقتلهم وأخذ ما معهم وسيَّره إلىٰ خوارزم.

وكأن خوارزم شاه ندم علىٰ ما فعل، وبدأ يستشير أصحابه ماذا يفعل، وبينما هو علىٰ هذه الحال جاءه رسول من جنكزخان ومعه رسالة يتهدد فيها ويقول لخوارزم: تقتلون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي استعدوا للحرب.

فلما سمعها خوارزم أمر بقتل هذا الرسول فأساء التدبير مرة ثانية كما يقول ابن كثير وبدأ الاستعداد للحرب.

وهكذا بدأ الزحف المغولي الذي لا يُبقي ولا يذر يدمر المدن والقرىٰ ويقتل أهلها صغارًا وكبارًا رجالًا ونساءً، كما وصف المؤرخ ابن الأثير.

كانت البداية عام (٦١٧هـ) حيث اجتاحوا مدينة بخارىٰ فقتلوا كل من كان بالقلعة يدافع عن المدينة، أمر جنكيز خان أهلها بالخروج منها، فخرجوا مجردين من أموالهم، ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه، وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيديَ سبأ، وأصبحت بخارىٰ خاوية علىٰ عروشها كأن لم تغن بالأمس وارتكبوا من النساء العظيم، وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال ثم رحلوا إلىٰ سمرقند ففعلوا فيها مثل فعلهم في أهل بخارىٰ من النهب والقتل والسبي، وهكذا في كل المدن التي وصلوا إليها.

وخوارزم شاه ينتقل من مدينة إلىٰ مدينة يتخفىٰ حتىٰ أدركه

الموت في طبرستان[١]، وكانت مدة ملكه إحدىٰ وعشرين سنة وفي عام (٦٥٦هـ) اجتاحوا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية بمساعدة من الفرقة الباطنية.

فإذا جئنا إلىٰ العصر الحديث، هل استفاد المسلمون من إشارة الرسول الرسول ﷺ ونصيحته الغالية؟ هل فهموا فحوىٰ ومضمون هذه الإشارة وأنها تنطبق أيضًا علىٰ حالة تشبه ما وقع لخوارزم شاه من سوء التصرف والغرور.

بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وانهيار الشيوعية، وجدها الغرب وبزعامة أمريكا فرصة سانحة لفرض زعامته وثقافته وقيمه علىٰ الآخرين، وأعلن عن شيء سماه «النظام العالمي الجديد» ولكن وفي الوقت نفسه فإن المسلمين أيضًا جاءتهم فرصة بعد سقوط الشيوعية، وتحرر البلاد التي أكثر سكانها مسلمون من القبضة الروسية، كانت فرصة لنشر الدعوة بين صفوف هذه الشعوب التي عانت من ظلام الشيوعية.

وفي هذا الوقت كانت المذاهب الفكرية كالقومية والاشتراكية

---

(١) «الكامل» (١٢/ ٣٦٦).

قد ضعفت كثيرًا وهذه فرصة لنشر الدعوة.

ومن خلال الحرية في بلاد الغرب والهدوء الذي ساد بعد الحرب العالمية الثانية استطاع المسلمون نشر الدعوة بين صفوف الغربيين والأقليات التي تعيش في الغرب، بنيت المساجد وأنشئت المراكز الثقافية.

هذه الفرص التي أتيحت للمسلمين في العصر الحديث أضاعها أو أضاع كثيرًا منها من أساء التدبير مرة ثانية، وتحرشت فئة قليلة من المسلمين بقوة عاتية متكبرة متنفذة وهي أمريكا وكأنها كانت تنتظر مثل هذا الحدث ومثل هذا الخطأ، لتغير علىٰ العالم العربي والإسلامي إضعافًا وتشتيتًا، وكأن أمريكا والغرب معها يريدون إشغال أنفسهم وشعوبهم بعدو ما بعد سقوط الشيوعية فوجودها فرصة ليكون هذا العدو هو الإسلام، واتخذوا ما قامت به هذه الفئة التي تسمىٰ «القاعدة» من ضرب برجي نيويورك ذريعة لمحاربة الإسلام ولكن باسم «الإرهاب»، ومن ثم جاء ضرب أفغانستان والعراق، وجاء إقفال المعاهد الدينية والجمعيات الخيرية الإسلامية، بل طالبوا بتغيير مناهج التعليم في كثير من البلدان العربية والإسلامية.

وصار كل مسلم في قفص الاتهام.

وهكذا استطاعت هذه الفئة القليلة التي لا تقرأ التاريخ ولا تتعلم من سيرة الرسول ﷺ، ولا تقدِّر الأولويات وفقه المرحلة الحاضرة، استطاعت أن تقلص وتضعف كل منجزات المسلمين في الغرب من مساجد وجمعيات ومراكز ثقافية أقامها المسلمون بصبر وتضحيات خلال زمن طويل.

هؤلاء الذين يظنون أنهم يحسنون صنعًا، لا يعلمون أن السلم والاستفادة من فترة السلم هو انتصار أيضًا «وصلح الحديبية نموذجًا»، وليس القتال دائمًا هو الانتصار.

(٩)
عسكرة الدولة
هل هو الطريق الصحيح

محمد علي باشا نموذجًا:

لماذا برزت حركات كبرىٰ قاومت الغزو الأوربي في القرن الثالث عشر الهجري «نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر الميلادي»؟!

كيف نجح الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في الوقوف أمام دولتين استعماريتين: فرنسا وإسبانيا وسجل الانتصارات عليهما معًا؟!

وكيف استطاع محمد بن أحمد السوداني أن يتغلب علىٰ جيش أكبر قوة استعمارية يومها «بريطانيا» ويهزم «جوردن باشا»

مع قلة العدة والعتاد؟!

كيف استطاع تلامذة السنوسية مقاومة الاحتلال الإيطالي والوقوف في وجه الزحف الفرنسي علىٰ غرب ووسط إفريقيا؟!

ولماذا سجل الشيخ شامل الداغستاني أروع الانتصارات علىٰ روسيا القيصرية؟!

هذه الحوادث والوقائع كانت متقاربة في الزمن وتفسيرها واضح.

إن الجيل الذي جاهد مع هؤلاء القادة لم يخضع لعملية التغريب والتدجين، لم ينهزم نفسيًّا أمام الغرب كما انهزمت أجيال بعد ذلك.

لم تزل في هؤلاء الذين جاهدوا أمام الزحف الأوربي لم تزل فيهم أنفة ورجولة وشموخ، وقد قاوم علماء الأزهر الحملة الفرنسية علىٰ مصر، ولكن بعد أن تغربت مصر علىٰ يد محمد علي وأحفاده دخل الإنجليز إلىٰ مصر بسهولة.

جاء التغريب بطرائقه المختلفة ومدارسه المتنوعة، وتخرجت

أجيال من السياسيين يعدون أكبر انتصاراتهم أن يرضىٰ عنهم المستعمر، وأكبر إنجازاتهم أن يطالبوا العدو ويطالبوا الأمم المتحدة أن تمنحهم شيئًا من الحرية والاستقلال.

كان الذي تولىٰ حركات المقاومة المنتصرة رجالًا من أهل العلم والدين الذين لم يخضعوا «للخواجات» ولم يفسد التغريب عقولهم «سقطت مصر خلال ساعات «أمام حملة نابليون» عندما كان أمراء المماليك يتولون الدفاع عنها، فلمَّا برز الأزهر وتحمل مسئولية قيادة المقاومة لم يبت جيش الاحتلال ليلة واحدة هادئة، فكان لابد من تغريب المجتمع وتصفية قيادة الأزهر، وهذه هي المهمة التي تولاها بنجاح رجل الغرب وممثل مصالحه محمد علي باشا»[١].

محمد علي باشا حاكمًا لمصر:

كانت بداية التغريب في مصر -ومصر قلب العالم العربي- ومن المراكز المهمة في العالم الإسلامي، كان هذا علىٰ يد جندي

(١) محمد جلال كشك «ودخلت الخيل الأزهر» (١٧).

ألباني اسمه محمد علي بن إبراهيم آغا[١]، قدم مصر وكيلًا لرئيس قوة من المتطوعة جهزتها الدولة العثمانية لرد الغزاة الفرنسيين، ولم تكن الدولة راغبة في أن يكون حاكمًا لمصر، ولكن الكتلة الشعبية وزعيمها عمر مكرم هي التي طلبت من الدولة تثبيت محمد علي فاستجابت مكرهة، وتولىٰ حكم مصر وكانت أولىٰ خطواته الإطاحة بمن رفعوه فأبعد الزعيم الشعبي نقيب الأشراف عمر مكرم واستعان ببعض المشايخ لإبعاده ثم أبعد الكل.

«غير أن الدرس القائل بأن علىٰ الحاكم تحطيم أولئك الذين رفعوه كان من الدروس التي تعلمها بدون قراءة ميكافيلي»[٢].

ويعلق المؤرخ الجبرتي علىٰ حادثة إبعاد عمر مكرم وتمالؤ

---

(١) ولد عام (١١٨٤هـ - ١٧٧٠م) في منطقة قولا من بلاد اليونان وكانت تابعة للدولة العثمانية وهو ألباني الأصل، كان أميًّا يتاجر بالدخان تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره تولىٰ مصر (١٢٢٠هـ وتوفي عام (١٢٦٥ هـ ١٨٤٩م).

(٢) ألبرت حوراني «الفكر العربي في عصر النهضة» (٧٣).

بعض المشايخ مع السلطة ضده «قاطعه المشايخ فاعتزلهم وترك الخلطة بهم، وهم يبالغون في ذمه لكونه لم يوافقهم علىٰ شهادة الزور ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر[١] راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض»[٢].

ثم أطاح الباشا بالمماليك الذين جاملهم في البداية ثم غدر بهم في مجزرة معروفة باسم مجزرة القلعة.

وكانت الخطوة التالية تهميش الأزهر والاستيلاء علىٰ أوقافه[٣] مما سبب ضآلة المرتبات وإحكام السيطرة علىٰ المشايخ والقائمين علىٰ التعليم في الأزهر، وحتىٰ الكتاتيب أغلقت بسبب تعطل أوقافها.

يقول المؤرخ عبد العزيز الدوري: «استولىٰ علىٰ أراضي الوقف وحاول تكوين فئة ملاكة من أنصاره وضباطه بإعطائهم

---

(١) نفي خارج القاهرة والمقصود بمصر: القاهرة.

(٢) «تاريخ الجبرتي» (٣/ ٢٧٤).

(٣) وأكمل الاستيلاء عليها ضباط ثورة (١٩٥٢م)، وفعل مثلهم ثوار وضباط في البلاد العربية الأخرىٰ.

أراضي واسعة»[١].

كان تدخله في شئون الأوقاف ضربة معول في أساسات مركز المعاهد الدينية ومركز العلماء.

البعثات التعليمية وبناء الجيش:

كان محمد علي أميًّا في بداية أمره ولكنه كان علىٰ شيءٍ من الاهتمام بالكتب، ولكن هذا الاهتمام لم يكن إلا بمقدار ما تساعده هذه الكتب في تثبيت حكمه وإحكام سيطرته، لقد ترجمت وقرأت عليه كتب عن نابليون، وأصغىٰ بإعجاب إلىٰ مؤلفات «ميكافيلي» التي كان وزيره «أرتين» الأرمني يترجمها له، بمعدل عشر صفحات في اليوم، يقول المترجم: «وفي اليوم الرابع استوقفني قائلًا: لقد قرأت كل ما أعطيتني إياه من «ميكافيلي» فلم أعثر علىٰ شيءٍ جديد، ليس لدىٰ ميكافيلي ما

(١) «التكوين التاريخي للأمة العربية» (١٢٦)، وهذا ما تفعله الدولة العسكرية هذه الأيام، يعطون الضباط الأعطيات والأراضي و(الفلل) كي يكون الولاء التام للرئيس.

يمكنني أن أتعلمه، فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرفه»[١].

أرسل محمد علي البعثات العلمية إلىٰ أوربا لنقل التقنية الغربية والعلوم الحديثة، وتنشيط الزراعة والصناعة، وهذا شيء جيد ومهم ولابد منه لأي دولة تريد الصالح العام، وأن تكون قوية تجاه الآخرين، ولكن هذا المشروع التحديثي الذي يدندن حوله الكثير من الكتَّاب ويمدحون محمد علي ويعتبرونه مؤسس مصر الحديثة، لم يكن هذا المشروع مسخرًا إلا لخدمة مؤسسة واحدة هي مؤسسة الجيش، وكان لعسكرة الدولة، ولم يكن مشروعًا متكاملًا لنهضة عامة كما وقع في اليابان؛ فهو لم يساهم في تنمية المجتمع، كان همه الأول: كيف يكون قويًّا، يسيطر علىٰ البلدان المجاورة، والذين ساعدوه علىٰ هذا التحديث من الغربيين أرادوا إيجاد قوة تساعد علىٰ تفكيك الدولة العثمانية، كما أرادوا زرع التغريب في عقول هذه البعثات.

يقول مستشار محمد علي الفرنسي «جومار» وهو المشرف علىٰ البعثات التعليمية معلقًا علىٰ نتائج امتحان البعثة الثالثة إلىٰ

---

(١) ألبرت حوراني «الفكر العربي في عصر النهضة» (٧٣).

فرنسا: «يظهر من فحوىٰ كتاباتهم أنهم قبل أن يكتبوا يفكرون بعقل غربي لا بعقل عربي فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستمحىٰ من عقولهم».

وفي كلمة لهؤلاء الطلبة عام (١٨٢٨): «إنكم منتدبون لتجديد وطنكم، أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها، اقتبسوا من فرنسا نور العقل».

وما سماه جومار الخرافة إنما يعني به الإسلام!

جاء هذا التحديث علىٰ حساب المجتمع المصري، فقد فرض الباشا نظام السخرة علىٰ الناس، ونهب الأموال من الفلاحين.

يتحدث المؤرخ الجبرتي عن عودة الباشا من رحلة إلىٰ جنوب مصر: «وبعد وصول الباشا بثلاثة أيام، وصلت طوائف العسكر وعظماؤهم، ومعهم المنهوبات من الغلال والأغنام والفحم والحطب، وأنواع التمر وغير ذلك، حتىٰ أخشاب الدور وأبوابها»[١].

---

(١) «عجائب الآثار» (٣/ ٢٧٦).

ينهب الباشا الغلال ليبيعها للإفرنج في ميناء الإسكندرية لأن من طبعه الحسد والشره والتطلع لما في أيدي الناس كما يصفه الجبرتي.

وأما حفر الترعة الموصلة إلىٰ الإسكندرية فقد مات فيها الكثير من الفلاحين من البرد والتعب[١].

ويصف لنا الجبرتي صورة ساخرة مؤلمة من ظلم محمد علي وعساكره يقول: «يأتون بالرجل ويقولون: عليك مال الطين «الأرض» فيقول: وأي شيء الطين؟ فيقولون طين فلاحتك في مدة سنين لم تدفعه، فيقول: لا أعرف ذلك ولا أعرف البلد ولا رأيتها «أي: أن المسكين من أهل القاهرة جاء من الريف» فيقولون: ألست الشبراوي أو المنياوي، فيقول: هذه نسبة قديمة سرت إليَّ من عمي أو خالي، فلا يقبل منه، ويحبس ويضرب حتىٰ يدفع المال، فالرجل ليس مزارعًا ولكن يجب أن يدفع مالًا لأنه ينسب إلىٰ قرية من القرىٰ.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٦٠١).

بل يذكر الشيخ الجبرتي عن العسكر: «أشياء يستحي الإنسان من ذكرها، حتىٰ خربت القرىٰ وافتقر أهلها»(١) وهذا ظلم وجور لم يسمع بمثله.

نعم، شيد الباشا المصانع المجهزة بالآلات الحديثة وقام بصيانة منشآت الري والصرف وتجديدها، وقام بحفر الترع ولكن بالاحتكارات الصناعية، فكان يجمع كل ما يقوم به أصحاب المصانع الصغيرة ويدفع لهم الثمن كما يفرضه «وفي أواخر عام (١٢٣٢ هجري) حجر وضبط جميع أنواع الحياكة، ورتب كتابًا بالنواحي والبلدان، فيحصون ما كان موجودًا حتىٰ إذا أتم نسجه دفعوا لصاحبه ثمنه بالفرض الذي يفرضونه»(٢).

نعم، أرسل البعثات لإيجاد الفنيين الذين يساهمون في مشروعه الخاص، وهو تقوية جيشه، وبناء أسطول ضخم في الإسكندرية، وأنشأ المدارس المتخصصة: المحاسبة، المدفعية، الطب، الألسنة ولكن النظام الاقتصادي كان قائمًا علىٰ ما يسمىٰ

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٠٨).
(٢) شفيق غربال: محمد علي (١٠٥).

«التحجير» مثل:

١- تشتري الحكومة الخامات اللازمة وتبيعها لأصحاب الحرف بأسعار تحددها الدولة.

٢- بيع المنتجات وفق أسعار تحددها الدولة.

٣- حظر إنتاج أي سلعة أو بيعها دون ترخيص من الدولة.

٤- إرغام مشايخ القرىٰ علىٰ شراء حصته من الإنتاج الحرفي.

وبذلك حطمت اللُّحمة الاجتماعية لهذه التكوينات الحرفية»[١].

لقد استهلكت صناعة آلة القوة «الجيش» ما يزيد عن نصف موازنة الدولة، وسوف تقلده الحكومات العسكرية الديكتاتورية، وتنفق أموال الأمة علىٰ الجيش الذي لم يحارب عدوًّا، وتنفق علىٰ تكديس الأسلحة التي لم تستعمل.

---

(١) حسن الضيقة «محمد علي والغرب» (٢٢١).

أثبت جيش محمد علي كفاءة عالية، ولكنها ليست باتجاه أعداء الإسلام، ولكن في ضرب الدولة السعودية الأولىٰ، وضرب الدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، فقد ارتاعت الدول الاستعمارية، كما ارتاعت الدولة العثمانية من هذه الحركة التجديدية فعهدت بالمهمة إلىٰ محمد علي، فجهز حملة أولىٰ بقيادة ابنه طوسون ثم ذهب بنفسه عام (١٢٢٨ هجري) إلىٰ الحجاز ثم جهز حملة ثانية بقيادة ابنه إبراهيم[١] انتهت بانتصار القوات المصرية، وهدمت «الدرعية» عاصمة نجد.

كما أثبت جيش محمد علي كفاءة عالية باحتلال بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم؛ حيث مارس الابن أسلوب والده في الظلم والتغريب.

يقول الشيخ عبد الرزاق البيطار في ترجمة إبراهيم باشًا:

«غشوم ظالم، محتو علىٰ الفساد، مجبول علىٰ الغلظة والقساوة،

---

(١) أو ابن زوجته كما في بعض الروايات.

عندما تمكن من بلاد الشام قهر الناس وفعل جميع الموبقات، وفرض علىٰ كل فرد من البالغين مالًا يؤخذ منه في كل سنة، واستولىٰ العسكر علىٰ أكثر المساجد والمدارس، ومنعوا من دخولها»[١].

وبعد احتلال الشام استمر إبراهيم في الزحف علىٰ الدولة العثمانية في عقر دارها، ووصل إلىٰ «قونية» فوقفت الدول الكبرىٰ مع الدولة العثمانية، ليس حبًّا بها ولكن التخطيط الأوربي كان لتقسيمها لمصلحة الغرب، فكان لابد من إرجاع محمد علي إلىٰ مصر والرضا من الغنيمة بالإياب، وافق الباشا علىٰ أن تكون مصر ولاية له ولذريته من بعده.

إن التلاقي بين مشروع محمد علي وأهداف الأوربيين يجب أن يقف عند حد معين، فلن يسمح الأوربيون لقوة ناشئة قد يستفيد منها المسلمون في المستقبل، ففي تقرير لمبعوث بريطاني إلىٰ مصر بتاريخ (٢٩/ ٥/ ١٨٣٤م) يتحدث عن «ضرورة

(١) «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (١/ ١٥).

تصفية مشروع محمد علي لما يشكله من مخاطر مستقبلية»[١].

ولذلك اشترط الغرب إنهاء الصناعات العسكرية، فربما يمتلكها في المستقبل من يستخدمها ضد العدو الحقيقي للمسلمين، واستجاب الباشا لهذا «ثم عدل عن الاستمرار في منشآته الصناعية بعد إنقاص جيشه ومحو أسطوله»[٢].

وهذا ما فعلته أمريكا في العراق بتدمير كل المنشآت الصناعية التي أقامها النظام العراقي السابق، حتىٰ لا يستفيد منها الشعب العراقي في المستقبل.

هل كان مشروع محمد علي نهضويًّا؟

إن تحديث محمد علي «ومن يشبهه من الحكام المعاصرين» لم يكن منبثقًا عن مبادئ عليا أو عن مشروع متكامل، والذين يرون أن التقدم المادي وحده هو التحديث جعلوا من محمد علي بطلًا، وأنه أحيا مصر بعد مواتها، ولكن

(١) حسن الضيقة «محمد علي والغرب» (١٨٣).
(٢) شفيق غربال «محمد علي الكبير» (١٠٧).

مشروعه كان مرتبطًا بالإستراتيجية الغربية الرامية إلىٰ تفكيك الدولة العثمانية، وبعد تنفيذ تلك المرحلة أعادوه إلىٰ حجمه واشترطوا عليه وقف التصنيع، بينما كانت التجربة اليابانية تجربة ذاتية ولمصلحة اليابان بالدرجة الأولىٰ، أما تحديث محمد علي فكان لمصلحة الجيش.

إن القوة العسكرية وحدها لا تبني الدولة ولا تؤسس لحضارة؛ لأن وطأة الجند ستثقل كاهل الدولة بمطالبهم المتزايدة فيصرف المال كله في ذلك الوجه.

بل إن اعتماد بعض ملوك الدول الإسلامية سابقًا علىٰ القوىٰ العسكرية وحدها حوَّل الجيش إلىٰ مرتزقة تنهب المال العام.

ومن خلال الباشا سيطرت القناصل الأوربية علىٰ مرافق البلاد ومنها التعليم، وكان هذا مدخلًا للتغريب حتىٰ أن إمام البعثة العلمية إلىٰ فرنسا رفاعة الطهطاوي وقف حائرًا فاغر الفاه من عظمة ما رأىٰ في بلاد الفرنسيين، وربما كان هذا في غفلة منه،

فكان مما ألّف «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» عام (١٨٦٨م) عقد فيه متصلًا ضمنه الدعوة إلىٰ استعمال العامية، وهذه دعوة خبيثة ربما لم يدرك الطهطاوي مدىٰ خطورتها.

وشيء آخر: لماذا لم يصدر عن هذا التحديث آثاره في إحياء الأخلاق الفاضلة والأعمال النافعة ووحدة الأمة واستقلال الحكومة كما يقول الشيخ رشيد رضا.

إن مهمة الدولة هي الأخذ بيد الفرد ومساعدته علىٰ النمو والتطور، وليس استخدامه وانتهاك حقوقه، وماذا يفيد إنشاء طريق أو فتح مصنع إذا دمر الإنسان من قبل الطاغية، أقام محمد علي مشاريع، ولكن أحفاده الذين تربعوا علىٰ عرش مصر أنفقوا الأموال لغير صالح الشعب، أنفقوها علىٰ الفساد والملاهي، وقد ولَّىٰ حفيده إسماعيل وعلىٰ مصر من الديون ثلاثة ملايين وترك مصر وعليها نحو مائة مليون جنيه، ولذلك رضي بالمراقبة الأجنبية لخزائن مصر.

وقبل حكم محمد علي وأسرته لم تستطع الحملة الفرنسية الاستمرار في احتلال مصر، للمقاومة الكبيرة التي واجهتها من قبل الشعب، ومن قبل الأزهر، ولكن بعد نصف قرن كان الطريق مفتوحًا أمام الاحتلال الإنكليزي «لأن طغيان هذه الأسرة قد حطم كبرياء الشعب وروحه المعنوية»(١).

رأي بعض الكتاب والمؤرخين فيه:

يقول الأمير عادل أرسلان: «جاء محمد علي آغا جنديًّا في الجيش العثماني، فصار بحسن حظه محمد علي باشا والي مصر، وكان من ذريته أمراء وأميرات، ولكن المتأمل في تاريخ هذه الأسرة لا يرىٰ في أعمال الكثيرين من أفرادها شيئًا يستحق بقاء هذه الثروة الطائلة في أيديهم، وهي ثروة تنتقل من أيدي الأمراء إلىٰ أيدي الفاحشات الأوربيات وتذهب في الملاهي والقمار، وكل هذا وفي مصر ملايين من البشر لا يملكون شيئًا»(٢).

ويقول الأديب العلامة محمود محمد شاكر: «فلما تولىٰ

(١) سيد قطب «مجلة الرسالة» العدد (١٠٠١) تاريخ (٨/ ٩/ ١٩٥٢م).
(٢) «مذكرات» (١/ ١٨٨).

محمد علي أمر مصر، وزينت له نفسه أن يستقل بها، وأغراه طموحه أن يجعلها تناصي دار الخلافة، انثال عليه قناصل الدول ليشدوا أزره وليحطموا بمعاول جيشه صرح الخلافة العثمانية»[١].

ويقول الشيخ محمد عبده: «وجه عنايته إلىٰ رؤساء البيوت الشريفة، فلم يدع منها رأسًا يستتر فيه ضمير «أنا» وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرىٰ، كأنه كان يحن لشبه فيه حتىٰ انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر لتصير البلاد إقطاعًا واحدًا له ولأولاده».

ويقول المؤرخ علي الوردي: «والمعروف عنه أنه كان في حكمه جائرًا ماكرًا شديد القسوة، يقول عنه بروكلمان: إنه علىٰ الرغم من أخطائه، يعود إليه الفضل في فتح مصر لتأثيرات الحضارة الأوربية»[٢].

---

(١) «أباطيل وأسمار» (١٨٨).

(٢) «لمحات اجتماعية في تاريخ العراق» (٢/ ١٥).

(١٠)
العرب والسياسة

مقدمة:

يكاد المؤرخون أن يجمعوا -وكذلك الباحثون في تاريخ الفكر الإسلامي- علىٰ أن ما قام به الخليفة العباسي محمد بن هارون «المعتصم» من استجلاب عناصر من أجلاف الترك والديلم ومن بدوهم المترحل، يكاد أن يجمعوا علىٰ أن فعلته هذه تركت آثارًا سلبية علىٰ التحضر الإسلامي وعلىٰ المدنية الإسلامية، وأنها أبعدت العرب -وهم جزء مهم في تركيبة الدولة- عن الفعل السياسي[١]، ورجعوا إلىٰ باديتهم كما يقول ابن خلدون، وكان هذا الاستجلاب بداية لتدخل العسكر في أمور

(١) استمرت الحضارة الإسلامية في تألقها في الجانب العلمي والاجتماعي؛ فالعلم بشتىٰ تخصصاته لم يساير السياسة في تدهورها وهذا من خصائص هذه الحضارة.

الدولة، وتسلطهم علىٰ الخلفاء الذين غدوا ألعوبة بين أيديهم، كما قال الشاعر:

خليفة في قفص بين «وصيف» و«بغا» يقول ما قالا له كما تقول الببغا

و«وصيف» و«بغا» من الجنود الأتراك الذين تحكموا في الخلفاء بعد الواثق ابن المعتصم.

وصف الإمام الطبري هؤلاء العساكر: «ذلك أنهم كانوا عُجْمًا جفاة»(١).

ووصفهم الجاحظ بأعراب العجم: «فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والفلاحة والهندسة، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، لم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل»(٢).

والحقيقة أنهم يجهلون أمور الدين وأمور الدولة، وليس لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، ولا القلب الذي هذبه الدين، وقد تأذىٰ منهم أهل بغداد؛ لأنهم يركضون الخيل في

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٩/ ١٨).
(٢) «رسائل الجاحظ» (١/ ٧١) تحقيق عبد السلام هارون.

الشوارع فتطأ الشيوخ والأطفال والنساء، وكانت شكاوىٰ الناس سببًا دفع المعتصم لبناء مدينة سامراء ونقل هؤلاء الجنود إليها.

ومنذ أن تسلط هؤلاء علىٰ أمور الدولة عاشوا علىٰ الانقلابات وعسكروا الدولة الإسلامية(١).

اتخذ المعتصم هذا القرار لظنه أن هذه العساكر ستكوِّن له عصبية داخلية يحمي بها دولته، خاصة والصراع بين أخويه الأمين والمأمون كان واضحًا أمامه، ولم يغب عن ذاكرته، والدول تبحث عن كتلة تؤيدها وتحميها، وقد تكون هذه الحماية

(١) نتكلم هنا عن ظاهرة (العسكرة) وظاهرة العسكر الرعوي القادم من أواسط آسيا والمتدثر بغطاء رقيق من الدين ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحُجُرات: ١٤] ولا نتكلم من زاوية عنصرية، ونعلم أنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوىٰ، ولا ننسىٰ دور المماليك (وهم من أجناس شتىٰ) في صد الغزو المغولي وبقايا الغزو الصليبي. فالحضارة الإسلامية هي التي استوعبتهم ورفعتهم إلىٰ درجة الحكام، ولا ننسىٰ الدور الذي لعبه السلاجقة الأتراك في إنقاذ الدولة العباسية من التسلط البويهي، وعندما قبل المسلمون بهذه الدول فعن وعي ومعرفة بالمصلحة العامة، وأهمية صد الأخطار الخارجية، وفي العصر الحديث وقفت الدولة العثمانية ولفترة طويلة سدًّا منيعًا أمام الغزو الأوروبي لأقطار العالم الإسلامي.

من القبائل والعشائر، وقد تكون أحزابًا ومؤسسات كما في بعض الدول المعاصرة.

أما عصبية الدولة الإسلامية فهي قائمة علىٰ لُحْمة الدين والشرعية الإسلامية والطاعة بالمعروف، والدولة العباسية وإن احتفظت بالشرعية الإسلامية ولكنها لم تستطع صهر العناصر التي تتكون منها الأمة في بوتقة واحدة، وقد رفعت في البداية شعارات صحيحة مثل «أهل السنة» وعدم التفرقة بين العرب وغيرهم، ولكنها لم تؤسس عصبية إسلامية تلتف حولها، هذه العصبية التي لم تستمر بعد الخلفاء الراشدين، ولم تؤسس طريقة مناسبة لانتقال الحكم بسلام، فأصبحت الدولة بحاجة إلىٰ عصبية تحميها، فإما أن تلجأ إلىٰ عصبيات خارجية «مثل ما فعل المعتصم»، وإما أن تعتمد علىٰ دول أجنبية كما هو الواقع اليوم.

وقد أدرك المعتصم متأخرًا إخفاق خطته والخطأ الشنيع الذي وقع فيه، فقد ذكر ابن الأثير في «تاريخه» عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له: «نظرت إلىٰ أخي المأمون وقد اصطنع «اتخذ وقرب إليه من يثق بهم من الولاة» أربعة فأفلحوا: طاهر بن الحسين وابنه عبد الله، وأنت وأخوك، وأنا اصطنعت

أربعة فلم يفلح أحد منهم: الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ووصيف[١]. فقلت: يا أمير المؤمنين، نظر أخوك إلىٰ الأصول فاستعملها فأنجبتْ فروعها، واستعملتَ فروعًا فلم تنجب إذ لا أصول لها»[٢].

والحقيقة أن ما فعله المأمون من تقريب طاهر وابنه وتقريب المعتصم هؤلاء كان خطأً كله، وتراجع العرب إلىٰ الصف الثاني أدىٰ إلىٰ خسارة العباسيين خسارة كبرىٰ، لأنهم لم يستطيعوا تعويض قوة العنصر العربي، وإن إسقاط المعتصم للعرب من الديوان هو أمر عجيب، بل نستطيع أن نقول: إن كل دولة تسعىٰ لكي تقيم كيانها علىٰ عنصر خارجي لابد أن تصبح مرتزقة لهذا العنصر الذي أرادته عبدا فأصبح سيدًا.

يقول غوستاف لو بون: «دلت الأبحاث علىٰ أن غارات البربر السلمية هي التي قوضت أركان الدولة الرومانية، فقد تمكنت عادة استخدام البربر في الجيش الروماني وفي بضع قرون

---

(١) انظر إلىٰ هذه الأسماء؟!

(٢) «الكامل» في التاريخ (٦/ ٧٢).

أصبح الجيش ووظائف الحكومة كلها من الأغراب»[١].

ورجعنا -مع الأسف- في تاريخنا الحديث إلىٰ الديكتاتورية العسكرية التي زرعت الخراب والدمار في البلاد التي حكمتها، وفي ظلها كانت هزيمة (١٩٦٧م) وكارثة (١٩٩١م).

إن الدولة القُطْرِية في تاريخنا المعاصر لم تجلب عناصر من الخارج، ولكنها جلبت عناصر من الداخل، من أوباش الناس وسَقْط المتاع، فهذه هي الحماية الوحيدة لهذا النوع من الحكام الذين تنكبوا عن جادة الحق، وأداروا ظهورهم لهوية الأمة، واستمروا في الانحياز لمعسكر الأعداء والرضوخ لمطالبهم التي لا تنتهي.

ونجد في الدولة القُطْرِية الحديثة من يحتمي بالطائفية الصغيرة الضيقة وتبتعد عن الشرعية العريضة «أهل السنة»، وبعض الدول تمنح جنسيتها للأعاجم وتخاف من العرب؛ لأن هؤلاء الأعاجم سيكونون أداة سهلة طيعة في يدها، خاصة وهم يشعرون بالقلة والضعف، فيقدمون الولاء الكامل والخدمات

(١) «سر تطور الأمم» (١٠٧).

المطلوبة، وبسبب خلق التملق والمسكنة يتمكنون من القرب من دوائر الدولة ويقربون من هم علىٰ شاكلتهم ومن جنسهم؛ فالشرعية الأصلية هي المستبعدة في الغالب.

من نتائج هذا الإبعاد للعرب:

كان من نتائج ابتعاد المسلمين في المنطقة العربية عن ممارسة السياسة بمعناها الصحيح، وبمعناها العلمي الحضاري، وبكل أبعادها التي تصب في مصلحة الفرد والمجتمع، كان من نتائج ذلك أن فقدت هذه الشعوب الثقة بنفسها، وفقدت الحس التاريخي والإستراتيجي، وعاشت المدن كما يقول ابن خلدون «عيال علىٰ غيرها في الحماية».

فالمجتمع الحضري بوجهيه المديني والريفي لم يعد يملك مصيره السياسي، وصارت المدن تستدعي الغريب أو العسكر لحمايتها.

والأمثلة التاريخية شاهدة علىٰ ذلك: «وبعد أن اختل أمر مصر بعد كافور الإخشيدي (٣٥٧هـ) كتب جماعة من أعيانها ورجال الدولة فيها إلىٰ أبي تميم الملقب بـ«المعزّ الفاطمي»

يطلبون منه عسكرًا ليسلموا إليه إدارة البلاد المصرية»[١].

وفي مصر أيضًا وبعد انسحاب الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حدث فراغ سياسي «كما يقال اليوم»، فما كان من زعماء الشعب وعلماء الأزهر إلا أن فوضوا أمور الحكم إلىٰ عسكري ألباني[٢] جاء مع كتيبة صغيرة مرسلة من قبل الدولة العثمانية لمساعدة المصريين في مقاومتهم للاحتلال الفرنسي.

وكما هي العادة فقد سخَّر هذا العسكري كل الإمكانيات الزراعية والعلمية لمصلحة الجيش الذي قام بضرب دولة ناشئة في جزيرة العرب بإيعاز من الدول الأجنبية، وقام مرة ثانية باجتياح أراضي الدولة العثمانية، ثم جاء أولاده وأحفاده ومهدوا بتصرفاتهم المالية والسياسية لتدخل الإنكليز واحتلال مصر.

وفي هذا العصر نستطيع أن نقول: إنَّ شعوب المنطقة العربية من أكثر الشعوب كلامًا في «السياسة» بمعناها الظاهر،

---

(١) انظر: «مجلة الزهراء» جمادىٰ الأولىٰ (١٣٤٤هـ).

(٢) كان يعمل في تجارة (التنباك).

ومن أبعد الناس عن الممارسة أو المشاركة في السياسة الحقيقية، بل نراها في كثير من الأحوال تلقي بزمام نفسها إلىٰ زعمائها الذين يفرضون أنفسهم عليها، بل ويُستخفّ بهذه الشعوب أحيانًا فتطيع وكأنها مسلوبة الإرادة، وقد أظهرت حرب الخليج الثانية هشاشة البُنَىٰ السياسية كما كشفت عن مدىٰ السطحية التي وقعت فيها الشعوب حين أصغت للدجل السياسي ومحاولات زرع الحقد والتعصب الإقليمي.

عودة إلى الجذور:

هل العرب -لصفات مركوزة في طباعهم- لا يقدرون علىٰ تأسيس الدول والاجتماع علىٰ صيغة سياسية كما يصفهم ابن خلدون: لأن من عوائدهم «الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة»، وأن «العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»، وأن «العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية»، «وهم متنافسون في الرياسة، وقل أن يسلِّم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا في الأقل وعلىٰ كره من أجل الحياء، فيتعدد الحكام فيهم والأمراء، وتختلف الأيدي علىٰ الرعية فيفسد العمران»؟

لا شك أن ابن خلدون يتحدث هنا في الغالب عن «الأعراب» أو من قرب منهم أو كان حديثَ عهد ببداوة من أهل الحضر، وليس عن جنس العرب، فالكلام عن طبائع مركوزة مستقرة لا تتغير ليس كلامًا علميًّا؛ فكل شعب له خصائص ومزايا ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والعرب إذا حسبت مزاياهم فإنهم يتفوقون علىٰ غيرهم في كثير من الصفات «الفردية» ففيهم الذكاء والحيوية والصفات الخلقية العالية، ولكن إذا كان الموضوع يدور حول تأسيس الدول وسياسة الملك التي هم بعيدون عنها كما يذكر ابن خلدون فما هو الشيء الذي يغيرهم ويؤثر فيهم وينقلبون به إلىٰ طبيعة أخرىٰ، ويحصل لهم الملك «الحكم» لابد أن نعود للبداية.

فالعرب قبل الإسلام -وخاصة عرب الشمال- كانوا قبائل متفرقة، ليس لهم دولة، والذين في أطراف الجزيرة كانوا خاضعين للفرس أو الروم، كان المجتمع العربي طاقات معطلة لا يستطيع إنتاج حضارة.

كان العربي -رغم مزاياه الشخصية- مشغولًا بأمور دنيوية

بسيطة، وفي ثقافته يجري مجرىٰ آبائه ويحيا بالتقليد.

جاء الإسلام وأقام رسول الله ﷺ دولة، وتعلّم الصحابة دروس السياسة والإدارة من خلال هذه الدولة، تعلّموها ممارسة عملية بعد أن فقهوها علمًا.

وحتىٰ يستفاد من الدولة لابد من استقرارها في المكان، واستمرارها في الزمان، والتعبير القرآني عن المدن بـ«القرىٰ» ذو دلالة واضحة؛ فهو مشتق من القرار والاستقرار، عنه يتولد الأمن والأمل والعمل، والبداوة المترحلة مناقضة لهذا كله، سواء البداوة العربية «الأعراب» أو بداوة العجم؛ ولذلك شجع الإسلام الانتقال من البدو إلىٰ الحضر والاستقرار في القرىٰ والمدن، وكانت الهجرة إلىٰ المدينة واجبة قبل فتح مكة، والمسلم الذي لا يهاجر ليس له من المميزات ما للمسلم المهاجر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ففي الاستقرار تبدأ دورة الحضارة، حضارة التوحيد والعلم، ونشر الإسلام وهداية الناس.

«فالبدو الحقيقيون لا يُنشِئون دولًا، فمن الضروري أن

تصبح نسبة معينة من السكان حضرية لكي يمكن الوصول إلىٰ مستوىٰ معين من التنظيم السياسي»[١].

وبدو المغول والتتار كانت كل أعمالهم تدمير وقتل المدنيات والحضارات من زعيمهم «أتيلا» إلىٰ جنكيز خان إلىٰ تيمورلنك.

«وقد وصف القرآن الكريم الأعراب المشركين بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا، أي: أشد كفرًا ونفاقًا من أمثالهم من أهل الحضر، وذلك لبُعدهم عن العلم والتهذيب، كما وصفهم بأنهم أجدر بالجهل لأنهم بعيدون عن العلم في الحواضر، وليس هذا ناتجًا عن ضعف أفهامهم، أو بلادة أذهانهم، فقد كانوا مضرب الأمثال في قوة الجنان وذرابة اللسان»[٢] ولكنها البيئة البدوية.

وفي الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «**من سكن البادية جفا**»[٣].

كما أنه لا يجوز للمسلم بعد أن هاجر أن يرجع للبادية كما

(١) محمد جابر الأنصاري «التأزم السياسي عند العرب» (٤٢).
(٢) رشيد رضا «تفسير المنار» (١١/ ٨).
(٣) «صحيح سنن النسائي» (٣/ ٩٠٢).

في قصة سلمة بن الأكوع عندما دخل علىٰ الحجاج فقال له: يا بن الأكوع، ارتددت علىٰ عقبيك وبدوت، قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو»[(١)]، فهذا الصحابي يعتذر عن رجوعه إلىٰ البادية بإذن رسول الله ﷺ، ولولا هذا ما أقام فيها.

وعن جابر بن عبد الله أن أعرابيًّا بايع رسول الله ﷺ علىٰ الإسلام، فأصاب الأعرابي وعَكٌ بالمدينة، فجاء الأعرابي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أقلني بيعتي فأبىٰ، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبىٰ، فخرج الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما المدينة كالكير تنفي خبثها، وتنصع طَيِّبها**»[(٢)].

إن القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ لا تذم البدو كأفراد، ولكن تذم ظاهرة البداوة لما فيها من القسوة والجفاء والبعد عن وسائل الاتصال اللازمة لاكتساب العلم والعادات الحسنة، وهي نمط عيش قد يتغير وليس ثابتًا، وكلما قرب البدو من الحاضرة كانوا أقرب للمدح، كما مدح رسول الله ﷺ قبائل

(١) «صحيح سنن النسائي» (٣/ ٨٧٧).
(٢) «صحيح سنن النسائي» (٣/ ٨٧٦).

أسلم وغفار ومزينة التي كانت تعيش ما بين المدينة ومكة، وفي المقابل وصف الرسول ﷺ المغرقين في البداوة بأنهم أهل كِبْر وخُيلاء.

وقد كان رسول الله ﷺ عالمًا بالنفوس ويعرف أثر البيئة والظروف، والإسلام هو بناء لمجتمع إسلامي جديد، أساسه الإسلام، ومن الضروري لنجاح هذا البناء مراعاة سنن الله في الاجتماع الإنساني.

ومن أبرز الشواهد علىٰ هذا الاتجاه في الإسلام اتجاه الاستقرار الحضري سواء في الريف أو المدن لتأدية رسالته علىٰ أكمل الوجوه وقد أكد القرآن علىٰ أن جميع الرسل الذين اختارهم الله ﷻ هم من أهل الحضر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وذكرت مكة بأنها «أم القرىٰ».

ومن فقه عمر رضي الله عنه أنه أمر ببناء المدن في العراق والشام ومصر وشمالي إفريقيا، ولا يزال بعضها باقيًا إلىٰ اليوم.

يقول الدكتور شاكر مصطفىٰ: «إن الحضارة الإسلامية

بنت ما بين مشارق الأرض ومغاربها، ما بين أرض الهند وتركستان والأندلس أربعمائة وتسعين مدينة، لا يزال أكثر من ثلثيها مراكز مدنية كبرىٰ وصغرىٰ، وندر في التاريخ أن بنت أمة هذا العدد من المدن»[١].

الإسلام هو الذي صهر العرب حاضرهم وباديهم في بوتقة واحدة، جمعت بين التحضر والقوة، وفي ظل قيادة الحاضرة «قريش» وجعلهم أمة تحمل رسالة، والناس الذين لا يحملون رسالة ليسوا أحياء بل «مخلوقات حية»، قد تكون القبيلة العربية علىٰ درجة نادرة من الذكاء والفتوة، وعلىٰ درجة عالية من الشجاعة والكرم، ولكن ذكاءها إذا لم يهتد بنور الوحي فستنفقه في مقتضيات العيش.

كان العرب في حالة سكون وتشرذم؛ فإنتاجهم الثقافي كان قليلًا، ولكن الإسلام بتشريعه الخالد الملائم للفطرة، المتجدد دائمًا هو الذي نقلهم وينقل الإنسان من حالات البدائية إلىٰ حالات التحضر والتمدن، فعندما تسيطر علىٰ الإنسان أنماط ساذَجة من الأساطير والخرافات والامتثال للتقاليد بشكل صارم

(١) «العرب في التاريخ» (٤٦).

فإنه يفقد القدرة علىٰ الإنتاج.

جاء الإسلام ووضع العرب ووضع الناس كلهم في حالة اتزان واعتدال، وقدم لمعتنقيه موازين ليتعرفوا الصواب بشكل دائم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

[البقرة: ١١١]

وانتقد الإسلام تلك النزعة الجمودية عند العرب «والأعراب خاصة».

قال تعالىٰ حاكيًا عنهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]. فالبدوي يعيش كما يعيش آباؤه، وهو إذ يقاوم التغيير والتجدد لا يقاومه عن غباء، ولكن لشعوره بأن البداوة حرية وعدم تقيد، وأن كيانه مرتبط بتقاليده.

العرب والإسلام:

عندما يضعف أثر الدين يعود العرب إلىٰ قبليتهم، يعود إليهم مفهوم «رئيس القبيلة»، فرئيس الدولة العربية المعاصرة هو

الكل في الكل، هو صاحب المال، وهو الزعيم الأوحد، ويرجع العربي إلىٰ طبيعته السابقة: ردود الفعل السريعة، الحماس القصير هو الذي يدفعه للعمل أكثر مما يدفعه الدوام المتعمق، يحب الأمور السهلة كما قال ابن خلدون: «ومن طبيعة العرب أنهم لا يتغلبون إلا علىٰ البسائط، ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة، لأن كل مستصعب عليهم تاركوه إلىٰ ما سهل»(١).

وهكذا نجد العرب اليوم «في الدولة القطرية» يميلون إلىٰ كل ما ينتجه الآخرون، فهذا أسهل من إنتاجه داخليًّا، والتجارة في البضائع أسهل من تصنيعها، وجلب الأموال من السياحة أسهل من الاعتماد علىٰ الزراعة والصناعة، وحتىٰ في أدبهم فإنهم يميلون إلىٰ التزلف السهل أو التهديم السهل «المدح والهجاء»، بينما نجد أن الرسول ﷺ اعتمد الصعوبة في الدعوة والمعاناة مع الناس، وتحمل الإيذاء، ولم يعتمد «المعجزة» التي تحل كل المشاكل، وفضل التربية الطويلة والتكوين النفسي.

وعندما يضعف أثر الدين يعود العرب إلىٰ التفرق، ودخول الأعداء فيما بينهم يفرقون صفوفهم، كما كان اليهود يفعلون في

(١) «المقدمة» (٢/ ٥١٣)، وهو يقصد الأعراب طبعًا.

المدينة، يضربون علىٰ وتر العصبية الجاهلية يفرقون بين الأوس والخزرج، ولكن عندما جاء الإسلام لم تنجح محاولاتهم في خداع الرسول ﷺ وصحابته، وكان من نتيجة لؤمهم وغدرهم أن أُخرجوا من المدينة، وعندما هاجت العصبية العربية في الأندلس كان من نتائجها أن أُخرج المسلمون من البلاد التي استقروا بها ثمانية قرون.

وفي العصر الحديث، خرجت شعوب المنطقة العربية بعد الحرب الكونية الأولىٰ، وهم أكثر الشعوب التي أصابها الغبن والظلم من الدولتين الباغيتين: بريطانيا وفرنسا، واستطاع جاسوس محترف «لورنس» أن يتلاعب بالزعماء العرب، واستخدم لورنس مئات البدو ليضرب بهم الدولة العثمانية، وانخرط الضباط القوميون في هذا الاتجاه، وتحالفوا مع الإنكليز لإقامة مشروعهم القومي كما يزعمون، فأخفقوا إخفاقًا ذريعًا[1]، وخُدِعوا بمعسول الكلام من الساسة الإنكليز.

---

(١) لا ينكر صلة هؤلاء الضباط والزعماء بالمعسكر الغربي، مما يعتبر خيانة لدينهم وأمتهم، ولكن هناك جانب آخر في المسألة وهي العقلية التي تمارس السياسة بسطحية متناهية.

كما جاء في رسالة جورج الخامس إلىٰ العرب: «إن حكومة ملك بريطانيا قررت أنه عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شرائط الصلح أن تكون شبه جزيرة العرب ترفل في ثياب الحرية، وتعلن الحكومة البريطانية للملأ أنه ليس في نيتها أن تقوم بأعمال حربية ضد بلاد العرب»(١).

وبعد كل الخدمات التي قدمها فيصل بن الحسين لبريطانيا أثناء وبعد الحرب العالمية الأولىٰ كانت جائزته أن منحه الجنرال «اللنبي» شهادة تقدير، فهذا كل ما يستحقه في نظرهم.

ومن أمثلة انخداعهم أنهم وضعوا آمالهم بعد الحرب الكونية الأولىٰ في مبادئ الرئيس الأمريكي «ويلسون»، ومنها حق تقرير المصير للشعوب، ومع ذلك فقد انحاز هذا الرئيس إلىٰ الأوربيين عندما قسموا البلاد العربية بعد مؤتمر باريس.

«وهكذا منَّاهُم الاستعمار بخلافة تعيد مجدهم، فلما انتصر مزَّقهم قطعًا، وقطعهم في أرضهم أممًا، وأصبح العرب الطامعون في الغنيمة غنيمة، وجاءت الحرب الثانية وجدد الوعد

(١) شكيب أرسلان «حاضر العالم الإسلامي» (٤/ ٤٨٤).

بلون آخر وتجدد فيهم الانخداع مع الأسف، وكان جزاؤهم أن نزع منهم فلسطين وأعطاها لليهود علانية، ووضع في جنوبهم شوكة لا يقر لهم معها قرار»[١].

عندما يتخلىٰ العرب عن الدين، يصبحوا «أُذُنًا» لسفراء الدول الكبرىٰ[٢].

ومما يدعو إلىٰ التأمل أن القرآن الكريم والحديث النبوي يستخدمان في صدد «المعروف» و«المنكر» كلمتي: الأمر والنهي، ولم يستخدما كلمات الالتماس والطلب إلىٰ غير ذلك من الكلمات التي تدل علىٰ الخضوع وصغر الشأن»[٣] كما هو واقع اليوم في توسلات العرب إلىٰ الأمم المتحدة في كل قضية من قضاياهم، قضية فلسطين وغيرها[٤].

---

(١) البشير الإبراهيمي «الأعمال الكاملة» (٥/ ٨٠).

(٢) انظر: نصيحة السفير الروسي لعبد الناصر بألا يقدم علىٰ الضربة الأولىٰ في حرب (١٩٦٧م)، وكلام السفيرة الأمريكية لصدام حسين حين أوحت له بعدم تدخل أمريكا في حال أي عمل يقوم به، وهذا ما شجعه علىٰ غزو الكويت.

(٣) أبو الحسن الندوي «الطريق إلىٰ السعادة والقيادة» (٦٧).

(٤) جاء في مذكرات الأمير عادل أرسلان ينتقد فيها تصرفات العرب السياسية ومن الأمثلة علىٰ ذلك: الوفد العربي إلىٰ لندن لبحث قضية فلسطين،

وحين يتنازلون في أمور لم يتصورها العدو ولم يتوقعها، إنهم يحجمون في مقام الإقدام، ويتهورون في مقام التريث، لقد فقدوا الحس السياسي والعمل السياسي.

ومن هنا ندرك أسباب هذه الأوضاع المتردية، وهذا التشرذم والاحتراب الداخلي، وتبديد الثروات في سياسات خرقاء جعلت بلادًا مثل الجزائر وليبيا والعراق فقيرة بعد أن كانت من أغنىٰ دول العالم الثالث.

عندما يتخلىٰ العرب عن الدين يرجعون إلىٰ الإسراف والتبذير في الأموال، بل السفه في تبديد الثروات.

لماذا لم تقم معجزة اقتصادية في أي بلد عربي بعد قفزة أسعار النفط عام (١٩٧٣م)، أين ذهبت الثروات العربية؟!

إذا أراد العرب أن يكون لهم وزن في العالم، يجب أن يعودوا إلىٰ دورهم الذي شرفهم الله به، وهو حمل الرسالة ونشر

= عبد اللطيف صلاح انسحب من الوفد الفلسطيني لأنه اختير مستشارًا لا عضوًا، عوني عبد الهادي يريد باطنًا سقوط المفتي (الحسيني) وحسين خالد غضب لأنه لم يرأس الوفد، فبقي في مصر، هكذا تبدأ مفاوضات فلسطين هنا. «المذكرات» (١/ ٢١٥).

الحضارة الإسلامية.

إن الله تبارك وتعالىٰ يعاقب علىٰ كفران النعمة ما لا يعاقب علىٰ الكفر، وقد أكرم الله ﷻ العرب بحملهم لرسالة الإسلام، وأنزل كتابه بلغتهم ومَنَّ عليه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، فإذا تنَّكر العرب لهذه النعمة فسوف يقعون لقمة سائغة للأعداء.

«والعرب كانوا مخطئين في جميع ميادين حياتهم السياسية والاجتماعية لما تركوا الإسلام الذي نهض بهم من قبل»[١].

(١) عمر فروخ «تجديد التاريخ» (٨).

(١١)
والعاقبة للمتقين

من السنن الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول، والتي تكرر ذكرها في القرآن الكريم قوله تعالىٰ تعقيبًا علىٰ قصته فرعون مع موسىٰ عليه السلام: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقوله تعالىٰ بعد ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

هذه سنة من سنن الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ولكن من هم المتقون الذين تنطبق عليهم هذه السنة؟

يقول الشيخ رشيد رضا معقبا علىٰ هذه الآية: «أي: الذين يتقون أسباب الضعف والخذلان والهلاك، كاليأس من روح الله

والتنازع، والفساد في الأرض والظلم، ويتلبسون بضدها وبسائر ما تقوىٰ به الامم في الأخلاق والأعمال واعلاها الاستعانة بالله والصبر علىٰ المكاره مهما عظمت»[1].

لن يفهم حركة التاريخ وما يصيب أهل الحق من ابتلاء ثم تكون لهم العاقبة، وما يصيب أهل الشر من المحق والإذلال ولو بعد حين، لن يفهمها من يجهل هذه السنة، ولا تسقط الأمم ويمحىٰ اسمها من التاريخ إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم.

وقد تكرر ذكر نصر الله للحق والمحقين والأنبياء والمرسلين، وأن العاقبة لهم، بعد الابتلاء والصبر ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]

ومن مقاصد القرآن ذكر أوليائه وحسن بلائهم، والعود بالعاقبة المحمودة عليهم، وذكر أعدائه وذهاب باطلهم وحلول دائرة

---

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٥٧٨).

السوء عليهم(١).

وجاء في الحديث: «**وكذلك الأنبياء تبتلىٰ ثم تكون لهم العاقبة**».

هذه السنة يجب أن يتعقلها المسلمون لأن ضعاف العقول يتعلقون بالظاهر الحاضر دون وعي لمصير تلك المظاهر ودون وعي لمآلاتها أخيرًا.

إن عامة الناس تعرف مصير الأمور بعد فوات الأوان، فقوم قارون تمنوا مكانه بالأمس ثم ندموا علىٰ هذا الفعل بعد هلاكه، وفي واقع الحياة وواقع التاريخ فإنه ما من عمل أو فكرة مرذولة إلا وتنال عقابها أو زوالها إن آجلًا أو عاجلًا، ولا توجد هزائم غير مستحقة لأنها السنن العادلة التي لا تظلم أحدًا.

«وقد يستطيع الخونة الإساءة إلىٰ غيرهم ردحًا من الزمن غير أن القضاء الحكيم يتربص بهم»(٢).

وكما يقول الحكماء: «تستطيع أن تخدع بعض الناس

---

(١) «تفسير ابن باديس» (٤٨٤).

(٢) محمد الغزالي «علل وأدوية» (٤٥).

بعض الوقت وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت».

وحتىٰ يعتبر الناس بهذه السنة أبقىٰ الله ﷻ عقوبات الظالمين المشركين آثارًا يراها الناس كلما مروا عليها، ولعلها تكون عبرة لهم ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

إنها سنة أيضًا أن عاقبة المكذبين المجرمين الهلاك والدمار ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤] إنه مشهد لقرية أسلمها الفسق إلىٰ الخراب، والقرآن يعرض هذا المشهد ليقدم نموذجًا عن المصير الذي ينتظر من يفسق عن أمر ربه.

ومن العبر الواضحة المعروفة في تاريخنا أن الذين شاركوا

في قتل سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتقم الله منهم في الدنيا من أمثال: جهجاه بن سعيد الغفاري وحرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدي وعمير بن ضابئ وكنانة بن بشر التجيبي ومحمد بن أبي حذيفة، وهكذا سائر قتلة عثمان لقوا جزاء عملهم في الدنيا قبل الآخرة.

وأما قتلة الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد سلط الله عليهم المختار بن أبي عبيد الثقفي؛ حيث تتبعهم في دورهم في الكوفة وهدم عليهم بيوتهم أو قتلهم.

وفي الأندلس حدث أن قام العلماء والعامة بثورة علىٰ الحكم الربضي وهو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، وسمي بالربضي لأن المعركة جرت في حي الربض في قرطبة، وفشلت هذه الثورة مما جعل الحكم ينتقم منهم ويقتل الكثير ويشرد الباقي خارج الأندلس، كان ذلك عام (٢٠٢ للهجرة).

يقول المؤرخون: «ولم ينل الحكم بعد وقعة الربض حلاوة العيش وامتحن بعلة طاولته أربعة أعوام واحتجب فيها

آخر مدته واستناب ولده عبد الرحمن في تدبير ملكه»[١].

وتطول قائمة الحكام الظلمة المستبدين وكيف أهلكهم الله وأكبهم علىٰ وجوههم وكيف عاشوا مشردين بعد أن أزيحوا عن كراسيهم، وما قصة الضباط الذين شاركوا في تعذيب الإسيلاميين في مصر في عهد عبد الناصر ببعيدة، لقد كانت نهايتهم إما قتلًا أو دخولًا للسجون التي كانوا يعذبون الناس فيها.

وهذا «هيلا سلاسي» امبراطور الحبشة وكان الرعايا يسجدون له، خلع وقتل شر قتلة عام (١٩٤٧م).

إن ما وقع أخيرًا من نهاية للحكام الظلمة الذين حكموا بعض البلاد العربية بالقهر والسجون وتبديد الثروات ومحاربة العلماء والدعاة هو عبرة لمن يعتبر، كان بإمكانهم أن يعلنوا انسحابهم استجابة لرغبة الشعب وسيسجل لهم هذا الموقف ولكنه الخذلان وسنن الله في الإحاطة بالظالمين فلا يقدرون علىٰ الأفعال الحسنة عقوبة لهم علىٰ تصرفاتهم وما اكتسبوا من الإثم، وكان بإمكان الشيخ القابع في دمشق وأمثاله الذين يؤيدون النظام

(١) «الحلة السيراء» لابن الأبَّار (١/ ٤٦) ت. حسين مؤنس.

السوري في إجرامه وقتله للمسلمين، وأمثالهم من الذين ينافقون ويداهنون الظلمة، كان بإمكانهم أن يجلسوا في بيوتهم ويبتعدوا عن الفتنة ولكنه الخذلان للذين يكنون الحقد للحركات الإسلامية التي تتبع المنهج السليم ولعقيدة أهل السنة.

وإذا عدنا إلىٰ الوراء، إلىٰ التاريخ مرة ثانية فإنه كان بإمكان قريش أن ترجع ولا تصل إلىٰ بدر وتصطدم مع المسلمين وتسلم مما وقع لها من هزيمة في المعركة الفاصلة ولكنه المصير الذي يريده الله ﷻ للجاهلية المتكبرة.

إنه الإنسان الذي يخفي قصور ذكائه بما يزعمه من إحاطة علمه، ولكنه في الحقيقة جاهل بسنن الله المقروءة والمشهودة في التاريخ.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

تقديم ٥
الفصل الأول مقدمات ١١
(١) من يستفيد من التاريخ ١٣
(٢) أهمية التاريخ ٢٣
(٣) الماضي والحاضر ٣١
(٤) التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري ٤١
أمثلة من الجانب الحضاري ٤٣
التاريخ السياسي والأمة: ٤٦
مقارنة مع تاريخ الغرب ٤٧
(٥) من يقف خلف تشويه تاريخنا؟ ٤٩
الفصل الثاني دروس التاريخ ٥٥

(١) العزَمات البَكرية ٥٧

(٢) الزحف البطيء ٦٧

(٣) مقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هل هو حادثة عادية ٧٧

السبب الظاهر للحادثة ٧٩

هل هذه جريمة عادية؟ ٨١

(٤) الفتنة الكبرىٰ أو المواجهة الكبرىٰ ٨٩

مدخل ٨٩

بدايات الفتنة ونذرها ٩٢

مجمل أسباب الفتنة ٩٩

الدروس ١١١

(٥) المسلمون والخلافة الراشدة ١٢٧

(٦) فتن الباطنية وأثرها علىٰ الأمة الإسلامية ١٣٣

مقدمة ١٣٣

الفساد العقدي ١٤٢

ثوراتهم وحركاتهم الهدامة ١٤٦

١- ثورة بابك الخرّمي (٢٠١ – ٢٢٢هـ) ١٤٦

٢- حركة القرامطة ١٤٧

٣- حركة سنباذ ١٤٨

٤- ثورة الزنج ١٤٩

الشعوبية والحرب الثقافية ١٥١

١- الشعوبية والزندقة ١٥١

٢- تشويه التاريخ الإسلامي ١٥٧

التحالف مع أعداء الإسلام ومناصرتهم علىٰ المسلمين ١٥٩

نموذج من دولهم الدولة العبيدية «الفاطمية» ١٦٥

النشأة والتأسيس ١٦٦

ولنا مع هذه الدولة الوقفات التالية ١٦٨

الباطنية واغتيال الشخصيات الكبيرة من الحكام والعلماء ١٧٧

من أهل السنة ١٧٧

أقوال العلماء فيهم ١٨١

(٧) الفرص الضائعة ١٨٣

وفي العصر الحديث ١٨٧

(٨) اتركوا الترك ما تركوكم ١٩٥

(٩) عسكرة الدولة هل هو الطريق الصحيح ٢٠٣
محمد علي باشا نموذجًا: ٢٠٣
محمد علي باشا حاكمًا لمصر: ٢٠٥
البعثات التعليمية وبناء الجيش: ٢٠٨
هل كان مشروع محمد علي نهضويًّا؟ ٢١٦
رأي بعض الكتاب والمؤرخين فيه ٢١٩
(١٠) العرب والسياسة ٢٢١
مقدمة ٢٢١
من نتائج هذا الإبعاد للعرب ٢٢٧
عودة إلىٰ الجذور ٢٢٩
العرب والإسلام ٢٣٦
(١١) والعاقبة للمتقين ٢٤٣
فهرس الموضوعات ٢٥٣